Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكتاب: رَصاصةٌ بألفِ عين..
المؤلف: هوشنك أوسي
التصميم الداخلي: حمـدي شـوقي
(2024)

رقم الإيداع: 2024/2551
الترقيم الدولي: 978-977-846-327-9

مؤسسة بتانة الثقافية
القاهرة
باب اللوق - 2 شارع مظلوم - أعلى مقهى الحرية - أمام جراج الفلكي - الدور الثاني.

Battana PUBLISHING HOUSE
www.battana.org
info@battana.org
@battana.org
@Battana_

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر؛
طبقًا لقوانين حفظ حقوق الملكية الفكرية.

لا يُسـمح بإعادة اسـتخدام وطبع أو توزيع أي جزء مـن مـادة الكتـاب، مرئيًـا، أو صوتيًـا، أو مطبوعًـا، أو إلكترونيًـا، دون إذن مُسـبَق مـن النـاشر، طبقًـا لقوانـين حفـظ حقـوق الملكيـة الفكرية.

الآراء الـــواردة في الكتـاب تعبّـر عن رأي مؤلفهـا، ولا تعكس بالضرورة رأي مؤسسة بتانة.

الإهداء

إلى كُتّاب وكاتبات القصّة القصيرة وعُشّاقها في كلّ مكان...

مع الاعتذار عن التأخُّر.

هوشنك أوسي

20/8/2023

أوستند ـ بلجيكا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خوف

بالرَّغم من أنَّه لم ينسَهُ قَطُّ؛ لا يودُّ أنْ يُذكِّرهُ أحدٌ بهِ. الذَّاكرةُ ليست عدوًّا لدودًا دائمًا، إلَّا أنَّها ليست صديقًا حميمًا أيضًا. كلَّما سألهُ أحدُهم عنهُ، جدَّدَ ذلك التأكيدَ الجميلَ البغيضَ نفسَهُ في رأسهِ الصَّغير؛ "رحلَ ولن يعود"، وجدَّدَ مَعهُ شعورَهُ باليُتم. نعم؛ مَن شبَّ على اليُتم، شابَ عليه.

في الصَّف السَّادس الابتدائي، أحبَّتهُ طفلة، وقالت بكلِّ براءةٍ ومحبَّة: "حين نكبر، سنتزوَّج. أليس كذلك؟". جاء ردُّهُ عليها سريعًا، قاسيًا، جارحًا، صادمًا، مخيِّبًا وغبيًّا: "لا. لن أفعل. لا أريد لابني اليُتم وهو في الرَّابعةِ من عمرهِ!".

مضت حياتُهُ على ذلك النَّحو؛ دون الاقتران بامرأة، وبقي ماضيه يضارعُ نفسَهُ، ولا يريد أن يمضي.

هكذا، استيقظَ من الحياة على "لا شيء" مؤلِم، جارحٍ، وتحت حصارِ الخوف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ستارة

مُنذُ خمسِ سنواتٍ خلَت، أمرُّ مِن هنا مرّتين أو ثلاثًا في الأسبوع. لا يفوتني النّظرُ إلى هذه النّافذةِ المتوسّطة الحجم، المطلّة على رصيفِ الشّارعِ مباشرةً؛ لأنّها نافذةُ شقّةٍ هي في الأصل نصف قبو، زجاجها عكِر، لكنهُ يفصحُ عمّا خلفهُ. السّريرُ على حالِ فوضاه، كأنّ صاحبهُ غادرهُ للتوّ ونسيَ ترتيبَهُ. ليس وحدهُ يفعلُ ذلك، أغلبنا هكذا، نتركُ أسرّتنا مِن دونِ إعادتها إلى وقارِ رتابتها.

كتابٌ مفتوحٌ على الكومودينة، يتوسّطهُ قلم، تجاورهُ نظّارة، كوبُ ماءٍ نصف ممتلئ، عبوةُ دواء، علبة سجائر، ومنفضة مليئة بالأعقاب، صندلٌ رجالي يظهرُ أمامَ باب الغرفةِ المفتوحةِ على ممرٍّ مظلم.

يبدو أنّ شخصًا غادر هذه الغرفة ونسي إنزال السّتارة المهترئة على تلك النّافذة، منذُ خمسِ سنوات، وربّما أكثر.

هكذا هم البشر، يغادرون وينسونَ إسدالَ السّتائرِ على حيواتهم.

تفصيل مفقود

الجوُّ ماطرٌ، شديدُ البرودةِ. لستُ مستعجلًا جِدًّا، لكنَّني مطمئنٌّ وواثقٌ بدورةِ الرُّوتين اليومي.

كعادتها، ستأتي الحافلةُ في موعدها، وإذا تأخَّرت، فلن يكون أكثر من دقيقتين أو ثلاث. الحافلةُ تحترمُ مواعيدها، وتحترمُ خطَّ مسارها أكثر. نادرًا ما تغيِّرهُ؛ بسبب التصليحات في أحد الشَّوارع التي تمرُّ فيها.

اثنتا عشرة محطَّة تفصلني عن مكان عملي. هذه رحلتي اليوميَّة ذهابًا وإيابًا. اجتيازها ليسَ فيلمًا سينمائيًا يكرِّر نفسهُ. دائمًا هُناك هامشٌ للارتجال، يمنحُ فرصةً لتفاصيلَ جديدةٍ ومهمَّةٍ مضافةٍ إلى المَشاهد. شيءٌ يشبه قراءة رواية مرّتين في اليوم، لكنْ بتفاصيل أخرى تضيفها الأقدار.

التَّفاصيل مِلحُ الحياة وسكَّرها؛ في زيادتها أو نقصانها إتلاف. أليست حيواتنا هكذا؛ تتكرَّر، والتفاصيل الجديدة المضافة إليها هي التي تقتلُ الملل، وتعزِّز الأمل في الاستمرار؟

البارحة، فقدتُ تفصيلًا مهمًّا جدًّا من تفاصيل رحلتي اليوميَّة. في المحطَّة السَّادسة؛ "فيلّا" قديمة فخمة، ما زالت في مكانها. في المحطَّة السَّابعة كان هناك رجلٌ مشرَّد، أشعث، كثُّ اللِّحية، من دونِ مأوى، يفترشُ الرَّصيفَ، في كيس نوم، من حولهِ بعض الكراتين والبطانيَّات البالية، وعبوات البيرة والمياه والكوكاكولا الفارغة، ويُجاورهُ كلبهُ. منظرٌ بائسٌ محزنٌ ومؤلم. كثيرًا ما شاهدتهما من خلف زجاج الحافلة، يتمازحان، وأحيانًا يتناولان طعامهما بشهيَّةٍ ومتعةٍ لا مثيل لهما.

في رحلة الذَّهاب، أحاولُ أن أكون في الجهة اليمنى من الحافلة؛ كي أراهما. وفي الإياب، أكون في اليسرى؛ للسَّبب نفسهِ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صورُ الكلبِ رابضًا على أطلال مقامِ صديقهِ تملأُ "السوشيال ميديا". يتساءلون عن كيفيَّة فقدان ذلك الرَّجل المشرَّد لتلك الفيلّا الفخمة؛ لأنَّه كان يمتلكها ذاتَ يوم! هناك أشياءُ نفقدها، لكننا نبقى نفتقدها ونتفقَّدها من حينٍ إلى آخر. ومع ذلك، لم ينشغل أحد بسبب افتراشه مكانًا ليس بعيدًا عن بيتٍ كان يملكه! لم ينشغلوا بحال الكلب الذي لا يودُّ مغادرة مكان صاحبه!

كذلك أنا، من الآن فصاعدًا؛ عليَّ البحث عن تفصيل جديد يعوِّضني فقدان لحظاتِ الفرح بين الرجل وكلبِهِ، التي أفتقدها الآن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انتظار

"الحياة نعيشها مرّةً واحدةً، نموتُ فيها ألفَ مرّة. عِشْ كثيرًا؛ كي تموتَ أقل". لطالما انتظرتُ أن يسدي إليّ والدي هذه النَّصيحة، لكنهُ غادرَنا مُذ كان عمري أربع سنوات. رحلَ إلى حيث يتحوَّل الآباء إلى صورٍ فوتوغرافيَّةٍ مؤطَّرةٍ، معلقَّة على الجدران. ولَحِق به جدّي، ولم يقل لي شيئًا من ذلك القبيل.

إييه...! نأتيها كي نغادرها. يا ليتنا لم نأتِ قَطُّ! وإن أتينا، يا ليتنا ما غادرناها مطلقًا!

منذُ أربعين عامًا أحاولُ أن يكون لي ابن؛ كي أقول له ذلك!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محنة إسرافيل

لكثرةِ الأخبارِ العاجلةِ عن الكوارث، والحروب، والأوبئة، والجوائح التي تجتاح العالم، وتلاحقنا في كلِّ لحظة؛ أشعرُ بأنَّ حياتنا باتت مؤجَّلة. فمتى سنعيش؟!

عزيزي إسرافيل؛ صدقًا، أشعرُ بِكَ، بمَللكَ ومحنتكَ، أتخيَّلكَ الآن؛ كيفَ تتحسَّسُ بوقكَ، تنظِّفهُ من الصَّدأ، وبيوتِ العناكب، وتنفضُ عنهُ الغبار العالق عليه. كذلكَ أنا، أتحرَّقُ شوقًا لسماع صيحتكَ ونفختكَ الكبرى، التي قرأنا عنها في الكتب المقدَّسة. أتمنَّى ألَّا تتأخَّر أكثر من ذلك..

أرجوك، طال انتظاري، وعِيلَ صبري.

قصَّةٌ كتبتُها على جداري في "فيسبوك". استعجلني صديق بالحذف؛ لئلا أُتَّهمَ بالكفر والإلحاد والزَّندقة. بعد مضيّ أشهر، قرأت على صفحة الصَّديقِ نفسِهِ قصَّة مماثلة مشابهة، بل مختلَسة ممَّا كتبتُه. قلتُ في نفسي: لو كنتَ -عزيزي إسرافيل- صديقي على "فيسبوك"، لكتبتُ لكَ مباشرة، وترجَّيتك الاستعجالَ أكثر في النَّفخ!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ندم

ـ لا محاسنَ لديَّ تُذكِّرُ النَّاسَ بي بعد موتي؛ كي يترحَّموا عليَّ. يااااه! ألهذه الدَّرجةِ كنتُ سيِّئًا؟!

ـ الطُّغاةُ، الفاسدون، المستبدُّون، المجرمون، اللُّصوص، قُطَّاع الطُّرق، القوَّادون، الدَّيايثة، أبناءُ الحرام، تركاتهم من الشُّرور والقبائح والجرائم تجعلُ النَّاس يتذكَّرونهم بعد موتهم، مصحوبين باللَّعناتِ والشَّتائم. أمَّا أنا، فلستُ مِن هؤلاء أو مِن أولئك! إذن، كيف عشت؟ ولماذا؟ ولمَن؟

Telegram:@mbooks90

ـ أشعرُ بالخجلِ مِن الموتى. هل سيستقبلونني؟ وبأيِّ وجه؟

ـ يقتلني الخجلُ من الأحياء أيضًا؛ كيفَ كنتُ منهم وبينهم، ولم أكن؟!

هذا المونولوج الدَّاخلي، كان خاتمةَ أيَّامهِ الأخيرة، ولسانَ حالِ آلامهِ الذي يلهجُ بالخيبة. هكذا، خرج من الحياةِ بكثيرٍ من النَّدم على أنَّه لم يعش.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نكاية في أكتوبر

الشَّيءُ الوحيدُ الذي بقي محافظًا عليه، منذ طفولتهِ حتّى كهولتهِ، هو الفضول؛ ذلك الشَّغف الممزوج بالثَّرثرة المتطايرة على شكل أسئلةٍ لحوحةٍ لا تكلُّ ولا تملُّ، لمَّا يزل يسري في دمهِ كأنَّهُ ترياقه.

لم يعمل صِحافيًّا، أو باحثًا، أو محققًا؛ كي تشفع له تلك المِهن ذلك الفضول الطفولي الذي كَبرَ معه، ولم يكبر. أسئلتهُ، بالنسبة إليه، دائمًا، لها معنًى، محقَّقة، وفي مكانها وزمانها المناسبَيْن. ينطبق عليه وصف: "الباحث عن كلِّ شيءٍ في شيء، والباحث عن شيءٍ من كلِّ شيء". التَّساؤل لديهِ يُمكنكم اعتبارهُ هوسًا، وسوسةً، مرضًا عضالًا لا بُرء منه. إنَّه شخصيَّة روائيَّة أو قصصيَّة بامتياز، ذلك الثَّمانيني الجالس على كرسي مُتحرِّك في دار رعاية المسنين، يخشى النُّزلاء مجالسته؛ مخافة أن يتعبهم بأسئلتهِ الغريبة المتناسلة.

في عيد ميلاده الحادي والثَّمانين، أعدَّت له إدارة الدَّار حفلةً، وجهَّزتْ له قالب حلوى على هيئة علامتَي استفهام متقابلتين، تتوسَّطهما علامةُ تعجُّب.

بعد إطلاقهِ تلك النَّفخة المنهكة المرتبكة المرتعشة التي أطفأ بها الشّمعة؛ أطلق سؤالًا غريبًا مفادهُ: "حقًّا لا أعرف؛ مَن الذي أجبرَ شهر أكتوبر على أن يكون قلب الخريف، وشاهدًا على كثير من الحروب والثّورات؟ ما -أو مَن- الذي منعهُ من المرور بالرّبيع أو الصّيف أو الشّتاء؟ مَن فرض عليه الإقامة الجبريَّة الأبديَّة في الخريف؟ ليس عدلًا هذا الغَبنُ اللاّحقُ بأكتوبر، وليس عدلًا أن أُولدَ فيه! نكاية في أكتوبر؛ لن أغادر الحياة في فصل الخريف". ثمَّ أطلق قهقهةً، لم يفهم المحيطون به كُنهها ومغزاها؛ أهي ساخرة مِن نفسهِ، أم مِن أكتوبر، أم المحيطين به؟!

ربَّما كان نوعًا من التَّحدِّي، أو لم يكن. ردَّت عليه امرأة تصغرهُ بعشرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أعوامٍ: "مع أنَّني لم أفهم سؤالك، ومعناه أو الهدف منه في هذه اللَّحظة السَّعيدة، فإنَّه يمكنني القول: معك حقٌّ. لكن، ما يؤرِّقني أكثر سؤالٌ آخر يا عزيزي: لماذا ندخل هذه الحياة ونحن نصرخ ونبكي، ونخرج منها صامتين يُبكى علينا؟ أليست هذه مهزلة أبديَّة نحياها ونشارك فيها، ونموت عليها، وأحيانًا نتقاتل لأجلها؟ دع عنكَ كلَّ هذه الترَّهات، ودعنا نشربْ نخبك أيُّها الطِّفلُ العجوز؛ تحيَّةً إلى أكتوبر، ونكايةً في إبريل"!

أكتوبر 2022

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رسالة طائشة

(السلام عليكم.. اسمي علي عمر، وأنا مدير بنك EAIB في دبي. لقد اتَّصلت بكَ بخصوص حسابٍ يملكهُ مواطن يحمل الجنسيَّة البلجيكيَّة في بلدكَ اسمه Jan de Schipper. هذا الرَّجل توفِّي قبل 14 عامًا، ولم يراسلنا أحد يذكرُ أنَّه الوريث؛ ليرث مدَّخراته. طلب منِّي البنك العثور على أقارب العميل المتوفَّى. لكنِّي لم أجد أحدًا. إذا لم يشتكِ أحد، فسيُحظَرُ الحسابُ ويُرسَل الملفُّ إلى القسم الإداري. لذلك، قرَّرتُ أن أقدِّم لكم خطَّة للتَّعاون، كي نحرِّر تلك الأموال الطَّائلة من ذلك الحساب.

يُرجى إرسال رسالة بريد إلكتروني إليَّ على العنوان الموجود أدناه؛ حتَّى أتمكَّن من إرسال المعلومات إليكَ، وكيفَ يمكننا التَّعاون والعمل معًا.

مع التحية والاحترام

علي عمر

البريد الإلكتروني: aliommar1976@gmail.com

لم يساورهُ أدنى شكٍّ في أنَّها مزيَّفة، هدفها اختراق الإيميل، ومنهُ اختراقُ بقيَّة الحسابات الشَّخصيَّة، وسرقة المعلومات والملفَّات. لكنَّ شيئًا ما جعلهُ لا يحذف تلك الرِّسالة، كما يفعل عادةً؛ مع رسائل من هذه النَّوعيَّة.

بعد مرور عشرةِ أشهر ونيِّف، قرأ في صحيفة يوميَّة عن مليونير بلجيكي فقدَ حياتهُ في جريمة قتل غامضة طُويَ مِلفُّها على أنَّها عمليَّة انتحار نتيجة الأزمة الاقتصاديَّة العالميَّة التي أدَّت إلى إفلاس كثيرين، ومنهم ذلك المليونير. لكنَّ خطأً طائشًا من القتلة كشفهم. وجاء في الخبر؛ أنَّ ذلك الخطأ رسالة بريد إلكترونيَّة أرسلها أحد كبار الموظَّفين إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مجموعة من المواطنين البلجيكيين تنتهي أسماؤهم بـde Schipper؛ بهدف التثبُّت من عدم وجود ورثة للضَّحيَّة؛ لأنَّه أودعَ 150 مليون دولار في ذلك البنك، شأنهُ شأن عشرات الأغنياء الأوروبيين المتهرِّبين من الضَّرائب، الذين يلجَؤون إلى الملاذات الضَّريبيَّة الآمنة، وأنَّ تلك الشَّبكة الإجراميَّة تتبَّع عملاءها الذين يودِعون ملايينهم في ذلك البنك. وإذا تبيَّن لهم أنَّ العميل لا ورثة له؛ تدبِّرُ عمليةَ اغتيالِهِ، وتضع أيديها على أموالِهِ المودَعة لديهم.

أذهلهُ ذلك الخبر بأنَّ شخصًا ما تلقَّى تلك الرِّسالة نفسَها وأبلَغ الشرطةَ، وكانت السَّبب في كشف جريمة مروِّعة، وجرائم أخرى. في حين أنه تجاهلَها على أنَّها رسالة تافهة! لم يخطر ببالِهِ وضع اسم البنك، أو اسم Jan de Schipper في محركات البحث؛ نوعًا من الفضول والتحرِّي. ذكَّرته تلك الحادثة بفكرة كانت تردِّدها صديقة له، مفادها؛ أعظمُ الرِّوايات والأفلام السينمائيَّة تبدأ بأحداث عادية، قد تبدو لنا تافهة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مَلاكٌ متقاعد

الأبُ مُفترشًا سجَّادةَ الصَّلاة، رافعًا رأسهُ، بعينين ذليلتين خانعتين خاشعتين؛ قرَّبَ كفَّيه إحداهما من الأخرى، كَمَن ينتظرُ أن يسقط شيءٌ من السَّماء في الكفَّين شِبهِ المضمومتين. الهيئةُ تنضحُ بالورع والتذلُّل في أثناء الدُّعاءِ والتوسُّل والتضرُّع إلى الله، راجيًا العفو والمغفرة، لكأنَّ الأب ارتكب كلَّ الفظائع والكبائر!

انتظرهُ ابنهُ حتَّى ينتهي؛ ليقول له، كالعادة: "تقبَّل الله".

غمرَ وجههُ بكفَّيهِ المضمومتين، ومسحَ بهما لحيته القصيرةَ المشذَّبةَ، واستدار نحو ابنهِ في هدوء الأولياءِ والحكماءِ الصَّالحين ودعَتِهم وغبطتهم، وقال: "منَّا ومنكم صالح الأعمال، يا ولدي". وأضاف سؤالًا روتينيًا: "كيف مضى يومك في المدرسة؟". أجابه الفتى: "حصَّةُ الدِّيانة، غرست رأسي بالأسئلة، وأدخلتني في حيرةٍ عويصة". وقبل أن يسأله الأب عن الدَّرس وموضوعِهِ، استدرك الابن كلامه، وقال: "سبحان الله الذي لا إله إلَّا هو! حرمَ نفسهُ من نعمةِ النَّوم، ومنحها لخلائقهِ. لكن، لماذا حرم الملائكة من تلك النِّعمة؟! إنَّ الله يدير الكونَ بهذا النِّظام الدَّقيق، ووزَّع المهام والوظائف على الملائكة، والأنبياء، والأولياء، والعلماء، والبشر العاديين، وجعل لكلِّ شيء سببًا؛ فهل إذا نام بضع لحظات، سيختلُّ النِّظام وينهار الكون، ويخرج عن إرادة الله؟! هل يَنقُص النَّومُ ألوهيَّةَ الله وربوبيَّتَهُ وحاكميَّتَهُ شيئًا؟! الأنبياء كانوا ينامون ويصحون، وما نقصَهمُ النَّومُ شيئًا. الملوك والسَّلاطين، ورؤساءُ الدُّول الكبرى ينامون، ولا تنهارُ ممالكهم ودولهم...!".

قاطعَهُ الأب بسخطٍ وغضب:

ـ ما هذه الأسئلة المجنونة والمسمومة والسَّخيفة؟! من لقَّنكَ إيَّاها؟! إنَّها أكبرُ من سنِّكَ! ماذا دهاك؟! ما الخبر؟ دع عنك هذه الضَّلالات، توضَّأ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واستعذ بالله من شرِّ الوسواس الخنَّاس، وصلِّ صلاة العصر قبل تناول الغداء. هيَّا، بسرعة.

طأطأ الفتى المراهقُ رأسه خجلًا واحترامًا، وامتثلَ للأمر. تركَ الأبُ سجَّادة الصَّلاة ممدَّدة على الأرض لابنهِ. بعد أن قضى الفتى صلاته، سأله والده: هل عادت الطمأنينة إلى قلبك يا بني؟ إنَّ الصَّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي.

أجابهُ الفتى إجابةً لم يكن يتوقَّعها: أبي؛ قلبي مطمئن بنور الإيمان. عقلي الذي يودُّ أن يطمئن. أبي...

ـ لماذا؟

ـ الحمد لله على نعمة الإيمان والإسلام. أعلن النَّبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- أنَّه خاتم الأنبياء والمرسلين، وسدَّ بذلك الباب أمام أنبياءَ جُدد. قالها الطِّفل.

ـ صحيح.

ـ لكنه، أحالَ جبريل إلى التَّقاعد!

ـ ماذا تقصد؟ قالها الأب باستغراب مشوب بالمفاجأة، والحَذر، وعدم الرِّضا.

ـ في المدرسة، قال لنا مدرِّس التَّربية الدينيَّة: إنَّ مهمَّة جبريل تبليغ الأنبياء رسالات الله، وكلامه، وأوامره، ونواهيه. وبوفاةِ الرَّسول أصبح جبريل عاطلًا عن العمل، ونحن لا نعلم ما إذا كان الله قد كلَّفه مهامَّ جديدةً أم لا!

ـ ألا لعنةُ الله على الشَّيطان الذي يسكن رأسك. اطرُدهُ، قبل أن يصل إلى قلبك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قالها بسخطٍ، وكأنَّ سمَّ عقرب الأسئلة انتقل إلى رأسِ الأبِ أيضًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كأنّها لم تكن

مدينةٌ أصغرُ سنًّا من أعمار سُكانها -ربَّما يبدو الوصف غريبًا أو مضحكًا بعضَ الشَّيء- أُعلِنَ عن البدء في بنائها، وبيعت شققها وهي لمَّا تزل على الخرائط والمخططات. مساحتها 250 كيلومترًا مربَّعًا. استغرق بناؤها خمس سنوات. بعد مضي 25 سنة على السَّكن فيها، لم تسجِّل مستشفياتها حالة ولادة واحدة. تزايد عدد سكَّانها بحكم الوافدين إليها، واتسعت مساحتها.

أنيقة، نظيفة، منظَّمة، مُخدَّمة، لديها سحرٌ يجذب النَّاس إلى السَّكن فيها! إذا سكنها شخص، لا تكاد تمضي تسع سنوات ويغادرها إلى الحياة الأخرى. بتلك القسوة، حافظت المدينة الجميلة والغريبة على هويَّتها، وكأنَّ روحًا شريرة تسكنها.

لم تُعمَّر طويلًا؛ مئة سنة فقط. ضربها زلزال عنيف وصلت شدَّتهُ إلى تسع درجات على مقياس ريختر، حوَّلها إلى أكوامٍ من الرَّدم والأنقاض. لم ينجُ منها أحد. غدت مقبرةً جماعيَّة، كأنَّها لم تكن مدينةً، قبل مئة عام.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا شيءَ أكثر

كجنديٍّ واقفٍ في برجِ المراقبة، ينظرُ إلى البعيد، تمرُّ الحمائمُ والعصافير بهِ، فلا يحرّك ساكنًا. كأنَّه يمارسُ اليوغا! يبدو أنَّ هناك شيئًا مهمًّا وخطيرًا يشغلُ بالهُ، ويأخذُ جُلَّ تركيزهِ. ثمَّة ترقُّبٌ وقلق من حَدثٍ جلل قادم. هيئته توحي بذلك. أنظرُ إليهِ بِحَيرةٍ وفضول، وهو ينظرُ إلى المجهول، شاردًا عمَّا حوله.

شوَّهتني الحربُ وطردتني، واستوطنت بلدي. وهأنذا في ديار الاغتراب جالسًا على كرسي متحرّك، أتأمَّلُ حالَ ذلك اللَّقلق الواقف على برج الكنيسة! أستَبعدُ أنَّه يخطِّط للهجرة والعودة إلى وطنه. حين تقسو ظروف الوطن عليهِ، يغادرهُ إلى وطنٍ آخر، يحنُّ عليهِ بالدِّفء والأمان. وطنهُ الحياةُ والتأمُّلُ فيها مِن الأماكن العالية. أمَّا أنا...، فأحاولُ ملء الفراغ بمثيلهِ. وطني الفراغ، لا شيء أكثر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لُغز

ما نفعُ العينين اللَّتين ابتُليتا بالعمى منذ الولادة، وعاشتا أربعين عامًا هكذا، ثمَّ أبصرتا؟! هل يمكن للمتبقِّي من العمر أن يعوِّضَ طفولةً، مراهقةً، شبابًا ورجولةً مضت في العمى؟ لا أعتقد.

ما نفعُ ساقين وُلدتا مشلولتين، وبقيتا في تلك الحال أربعين عامًا، ثمَّ دبَّ فيهما الحراك، وحملتا صاحبهما الأربعيني، إلى أن يغادرَ الحياة؟!

عباراتٌ سبق أن قرأها على قصاصةِ ورق التقطها من الأرض بمحض الصُّدفة، بدت له مَأخوذةً من كتاب؛ لأنَّ الوجه الخلفي للقصاصة مكتوبٌ عليه بالخطِّ نفسه، لكن يحتوي على جُمل وتراكيب مُبهمة، غير معروفة المغزى والمقصد.

ليس لأنَّها جملٌ وأفكارٌ عبقريَّة وصادمة ومهمَّة للغاية؛ بل ثمَّة طاقة خفيَّة حرَّكت لديه الفضول كي يعرف؛ مَن صاحبها، ومِن أيِّ نصٍّ اقتُطِعتْ؟ أمِن قصَّةٍ، أم روايةٍ، أم مقالةٍ، أم نصٍّ نثري مفتوحٍ مطبوعٍ فيْ كتاب؟

على امتداد أشهر، وهو يُرهقُ محركات البحث على الإنترنت، لكنْ حاول عبثًا. يئسَ من البحث. استنفد مخزونه مِن الفضول الذي دفعهُ وحرَّضه على ذلك. احتفظ بتلك القُصاصة. الأمرُ ليس غريبًا، يحدثُ ذلك أحيانًا؛ أن نحتفظَ ببعض الأشياءِ التي نظنُّها مهمَّة يمكن العودة إليها لغرض ما عند اللُّزوم، فتتراكم، من دون أن تأتي تلك اللَّحظة التي تُحوجنا إليها.

بعد مرور خمسة أعوام أو يزيد، وفي أثناء قراءتهِ روايةً حديثةَ الصُّدور، كانت مثار إعجاب النُّقَّاد؛ فجأةً، وقعت عيناهُ على تلك العبارات، بالنَّصِّ والحرف. فورًا عادَ إلى القصاصة القديمة، على إيقاع رفع أفاعي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفضول ذات الأجراس رؤوسَها. آن أوان الحاجة إلى تلك الورقة. قارن بينهما، لا فرق أبدًا؛ كأنَّهما "نَسْخ ولصق"! هذا التَّطابق، أعادهُ إلى دوَّامة الفضول السَّابقة. صار يسأل نفسه: هذه رواية حديثةُ النَّشر، وكاتبها شابٌّ، من بلدٍ آخر، له رواية أخرى، ومجموعتان قصصيتان، والكلُّ يبشِّرُ به، ويُشيدُ بموهبته. كيف تسرَّبت تلك العبارات حرفيًّا إلى نصِّه الجديد؟!

أحسنَ الظنَّ به، وافترض احتمال أن تكون تلك العبارات واردة في روايته السَّابقة، أو في إحدى قصصهِ القصيرة المنشورة؛ فقرَّر قراءة كلِّ شيء صدر لهذا الكاتب، ومراجعة الحوارات الصِّحافيَّة التي أُجرِيَت معه، ربَّما تكونُ واردة على لسانهِ سابقًا، وتكرَّرت مجددًا. فعل ذلك، بشغف المحقِّق القضائي ولؤمهِ، ولم يعثر على نتيجة.

سأل نفسه: هل رأى الكاتب الموجود في ذلك البلد البعيد القُصاصةَ نفسَها المكتوبَ عليها تلك العبارات على الأرض، فالتقطَها، واحتفظ بها، ودمجها في نصِّه؟! لكنني عثرت عليها قبل خمس سنوات، فمتى عثر عليها هو؟ أكان ذلك في التَّوقيتِ نفسِهِ؟

لستُ كاتبًا، ولكنني احتفظت بها لغرضٍ أجهلهُ. هل أجرى هو أيضًا حملةَ بحث وتَحرٍّ عن كاتبها ومصدرها، كما فعلت؟ وحين لم يجد، نسب تلك العبارات إلى نفسه؟! من يمكنهُ مساعدتي على حلِّ هذا اللُّغز؟!

كتبَ على صفحته هذه التَّفاصيل، ولم يرد عليه أحد من أصدقائه.

من بعيد، كان هناك شخصٌ يراقب الأمر من كثبٍ وحذر وصمت، ويسترقُ النَّظر إلى مستويات التَّفاعل مع ذلك المنشور.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإرهابيّة الصّغيرة

اعتادت رؤيتَهُ خلفَ سياج حديدي. لم يكن سياجَ حقلٍ أو حديقةٍ أو منزلٍ. حين كانت تزورهُ مع أمّها؛ ترى آباءً كثيرين مثلهُ. لم ترهُ في البيت داخلًا إليهِ أو خارجًا منه. يشبهها كثيرًا؛ لذا صدَّقت كلام أمّها على أنَّه والدها.

في المدرسة، لم تخجل يومًا من القول: "أبي مسجون".

في البداية، ظنَّت أنَّ آباءَ كلِّ التلاميذ مثل والدها، يسكنون خلف تلك الشَّبابيك المعدنيَّة. لاحقًا، اكتشفت أنَّها الوحيدة. أحزنها ذلك، وأشعرها بالمرارة.

حصلَت في المرحلة الابتدائيَّة على أعلى معدَّل، لكن مدير المدرسة منع منحها شهادة التّفوّق والتّقدير، وأعطاها لطفل آخر، حصل على درجات أقلَّ منها، يعمل والدهُ في الشرطة.

قال المدير: "لا يمكن لابنة الانفصالي، الإرهابي، الخائن، أن تكون الأولى على المدرسة؛ بل ابن الجندرمة أولى منها بذلك".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مكافأة نهاية الخدمة

واصلَ عملهُ بأمانةٍ وإخلاص وتفانٍ، كما يليقُ بقاتلٍ محترف؛ رصاصتهُ بألف عين؛ لا تخطئ هدفها. أغلب مهام الاغتيال القذرة، المتعلِّقة بالقنص، الموكلةِ إليهِ، أنجزها بفخر على أنَّه يزيح الخونة وأعداء القضيَّة من طريق الثَّورة والشَّعب. لكن، بدأ أداؤهُ يتراجع حين أصبح أبًا. الأبوَّة تجعل الحنان يتسرَّب إلى القلوب القاسية. كلَّما نظر إلى طفلهِ، شعرَ بخنجرٍ يحفرُ ضميرَهُ، ينخرهُ، ويطالبهُ بمعرفةِ عدد الأطفال الذين يتَّمهم، عندما استهدف آباءَهم!

كلَّفتهُ جماعتهُ السِّياسيَّة مهمَّة اغتيال أحد معارضيها. كلُّ شيء جاهز؛ المخطَّط، الوسيلة، التَّوقيت. في كلِّ مرَّة صوَّب مسدَّسهُ في اتجاه الهدف، وجدهُ ممسكًا بيدَيْ طفليهِ ويتَّجه بهما إلى المدرسة؛ فيغلبُ الإنسانُ الوحشَ القاتلَ في داخلهِ، تخذلهُ خبرتهُ ومهارته. يقول للشَّخص الذي يجاورهُ في السَّيارة:

الأب خائن، لكن ما ذنب الطِّفلين يشاهدان والدهما مقتولًا أمامهما؟!

اقتلْ، ولا تخشَ شيئًا. أولادُ الخونة خونة. هؤلاء يشتمون شهداءنا. أطفالهُ حين يكبرون سيكونون مثل والدهم الخائن.

قال مرافقه ذلك، بغضب وتحفيز.

كفَّت منظِّمتهُ يديهِ عن تنفيذ تلك المهمَّة، حين تأكّد لها أنَّهما بدأتا ترتعشان بفعل تسرُّب الضَّمير إليهما، وكافأته بإرسالهِ إلى البعيد البعيد؛ حيث لا قنصَ، ولا أياديَ ترتعش.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"سكرين شوت"

كثيرةٌ هي الأوهام التي ورثناها مِن آبائنا! وأكثرُ منها؛ الأوهام التي أورثتنا إيَّاها مناهج التَّربية والتَّعليم. أرأيتم، كَم نحن أغنياء؟! حصادنا من الأوهام هائل ومرعب، لا يمكننا تصوُّره.

أمَّا الأدباء والمثقَّفون، فتلك هي مهنتهم المفضَّلة؛ صناعةُ الوهم. والأكثرُ مهارةً وإبداعًا بينهم؛ مَن يتقن فنَّ اختراع الأوهام، وتوزيعها على البشر. وسطَ هذه المهزلة، الكلُّ يحضُّ الكلَّ على البحث عن الحقيقة. يبدو الأمر، للوهلة الأولى، شبيهًا بالطُّرفة، أو المزحة، أو الدّعابة المثيرة للضَّحك! أليس كذلك؟!

قالوا لنا: القراءة تقتل الملل، وكذلك الاستماع إلى الموسيقى، أو محاولة الرَّسم، أو العزف، أو الكتابة، أو الرَّقص. لكن، لا شيء يقتلهُ؛ بل هو القاتل المتسلسل المحترف الذي يمكنه التَّسرُّبُ إلى كلِّ الفنون والآداب وتفاصيل الحياة، من دون ملل. إنَّه الوهم.

نحن أوهامُ بعضنا بعضًا، أيَّتها السيِّدات والسَّادة.. لكم أن تصدِّقوا أو لا تصدِّقوا.

كتبَ ذلك في حسابهِ على فيسبوك، وأغلق باب التَّعليقات. أبقى المنشور عدَّة ساعات، عاد إليهِ، قرأهُ، ثمَّ حذفه.

أخذَت صديقته "سكرين شوت" للمنشور، وأرسلَتها إليهِ على الخاصّ، مع قلب يتوسَّط وردتين، من دون تعليق.

حدث ذلك قبل خمس سنوات، ولولا ذلك الـ"سكرين شوت"، لما اكتشفَ النَّاس أن مدخل رواية بعنوان "الملل" -التي يُعادُ طبعُها منذ خمسة أعوام- مُختلَس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محاولةُ تهرُّبٍ ضريبي

أسبابٌ لا حصر لها، تجعلهُ يكرهُ الضَّرائب. تؤرِّقهُ محاولاتُ التَّفكير الدَّؤوبة والحثيثة الفاشلة في كيفيَّة التهرُّب مِنها!

وَسْواسهُ الذي لا يكفُّ عن الثَّرثرة في داخلِهِ، يقول له: الحريَّة لها ضرائبها، وكذلك العبوديَّة، الصِّدق له ضريبته، والكذب أيضًا. السَّلام والحرب، الحياة والموت، الحب والكراهية، الكلام والصَّمت، الحكمة والجهل، الفضيلة والرَّذيلة. أوه، يا إلهي! أريدُ فعل شيء من دون أن يكون له ضريبة!

ـ أيَصلُحُ هذا النَّصُّ ليكون قصَّة قصيرة، أستاذي الفاضل؟

ـ لا طبعًا.

قالها النَّاقدُ والقاصُّ المشهورُ بثقةٍ واعتدادٍ وقليلٍ من التَّواضع المتغطرس.

ـ لماذا؟

ـ سَلْ وسواسك "الذي لا يكفُّ عن الثَّرثرة"، يَقُلْ لك: الكتابة أيضًا لها ضرائبها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خبر آجل

سيِّدي/سيِّدتي..

يُرجى عدم القلق. عِيشا حياتكما بكلِّ ما أوتيتُما مِن شغف. لا تحرما نفسيكما من أيِّ شيء يمكنكما الحصول عليه بالطُّرقِ المشروعة. أطفئا حروبكما مع الآخرين، وتصالحا مع الأعداء. اذفِنا كلَّ الأحقادِ وأصنافِ الكراهية وأنواعها، أو انتَقِما من كلِّ مَن تزَيانهِ يستحقُّ الانتقام. استعجِلا في إنجاز كلِّ الأعمال المؤجَّلة، وأتمِما الأعمال غير المكتملة. الأمرُ ما عاد يحتمل أيَّ تباطؤٍ أو كسلٍ، تخاذُلٍ أو تجاهُلٍ.

نحنُ على بُعد شهرٍ واحد مِن اصطدام جيش من النّيازك العملاقة بكوكبنا. سنغدو أثرًا بعدَ عين، فلا تقلقوا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هزيمة نكراء

ذات يومٍ، خطرَت ببالِ سليمان بن داود فكرةٌ مجنونةٌ وغريبةٌ؛ كي يعبِّر عن مدى حبِّه لبلقيس وهُيامهِ بها، قرَّرَ أن يبني لها قصرًا من ريش الطّيور. أصدرَ فرمانًا يُلزمها التّخلّي عن ريشها، ودعاها إلى اجتماع عاجل لهذا الشأن.

قبل بدء الاجتماع، نتف الخفّاش ريشهُ، وقال: "أنا مشغول. ليس لديَّ وقتٌ فائضٌ أصرفهُ في الاستماعِ إلى الثَّرثرات الفارغة حول قرارٍ جرى اتخاذُه، ولا يمكنني أن أحول دونه". وغادر الاجتماع مُسرعًا.

كأيِّ ملكٍ، سألَ سليمان النَّسرَ، كبير الطّيور، ومدير الاجتماع: هل مِن أحدٍ غائبٍ عن اجتماعنا؟

بخجلٍ وحياءٍ، أجابهُ النَّسر: "بلى، يا مولاي".

ـ مَن الذي تجرَّأ على المعصية وغاب؟!

ـ مع الأسف، البُوم.

ـ البُوم! هاتوه فورًا إلى مجلسنا، عَنوةً. قالها بغضب وسخط، ضاربًا كفَّهُ على ركبتهِ اليُمنى، ونهضَ من كرسيِّه، كالملدوغ.

أُتِيَ بالبُوم مقيَّدًا. وضعوهُ وسط حشد الطّيور، مهانًا ذليلًا. عَينا سليمان ترتعشان وتقدحانِ غيظًا، ويقابلهما فيضُ عينَيِ البُوم، تحدِّيًا وعصيانًا. قالها سليمان: "لماذا عصيتَ الأمر، ولم تحضر اجتماعنا؟! كيف تتجرَّأ على ذلك؟! هل جُننت؟!".

أجابه البُوم بهدوءِ الحكيم، وثقةِ المقاتل: "لا إذعانَ أو تسليمَ لظالمٍ يعصي أمرَ الخالق! أنتَ العاصي ولستُ أنا".

أنا؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ نعم، أنت. ألا تخافُ ربَّك؟ كيف يطاوعك قلبكَ، ويساندكَ عقلكَ؛ في سلبنا ما وهبَنا الله من ريشٍ، نستعين بهِ على حرِّ الصَّيف، وقَرِّ الشِّتاء؟! لماذا؟ كي ترضى عنك حبيبتُكَ، تأتي وتظلمنا! ما شأننا إذا رضيَتْ عنكَ أو لم ترضَ؟! ستنتشي بلذَّة مضاجعتها على سريرٍ من ريشنا، ونحن يضاجعنا البردُ والحرُّ حتَّى الموت! ضعْ نفسك مكاننا؛ إذا بُتِرَت قدماكَ، فكيف لكَ الوقوفُ والسَّير؟ وكذا حالنا مِن دون الرِّيش، كيف لنا الطَّيران؟ كيف نهرب ممن يودُّ افتراسَنا؟ كيف نجنِّب أنفسنا الحرَّ والبرد؟ أن تذبحنا جميعًا وتنتفنا، أهونُ علينا وأحسنُ مِن سلبنا ريشَنا، وتزْكِنا عراةً. إن كنتَ تحبُّ بلقيس إلى هذه الدَّرجة، وتريد إقناعها بحبِّك؛ فما علاقة ريشنا بالأمر؟! طيِّب، ما دام الأمر هكذا؛ فاقتلِعْ إحدى عينيكَ، وأهدِها إيَّاها، ودَعْنا وريشَنا.

من دون أن يرفَّ له طرفٌ أو جفن، واصل البُوم عبوسهُ وتحديقهُ بحدَّة في عينَيْ سليمان. ولحُسن حظِّه أنَّ بِلقيس لم تكن موجودة لترى مأزق منطق حبيبها وحرجه وهشاشته، أمام حِجاج وبراهين هذا الطَّيْرِ المغلول.

كلامُ البُوم وردودهُ، أشعرا النَّسر وبقيَّة الطيور بالخجل أمام أنفسهم، وقبولهم الذلَّ والمهانة، وأنَّ مَن وهب لهم ريشهم هو آخِذهُ، لا غيرهُ. أثارَ كلامُهُ لدى معشر الطيور نزعةَ الشكِّ والتَّساؤل. منها ما أُعجِب بمنطق البوم وجسارته وجرأته في الدِّفاع عن نفسه، وعن بقيَّة الطّيور. ومنها ما شعرَ بالغيرة منهُ. قلَّة قليلة من الطّيور -يقودها الهدهد- حاولت التّقليلَ من أهميَّة كلام البوم، والتّشكيك في حججهِ وأسانيدهِ، ومعاضدة سليمان.

انعقد لسان الملك، وبدأ يفقد توازنه، ظهر عاجزًا مهزوزًا أمام فصاحة ورجاحة كلام البوم. تسرَّب القلق إلى قلبهِ؛ خشية اتساعِ دائرة العصيان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لتشمل طيورًا أخرى. حاول استرداد هيبتهِ بالسّخرية من هيئة البُوم، فقال:

ـ انظروا إلى رأسه!

ـ إنَّهُ كرأسِ الرِّجال الشُّجعان. أجابهُ البُوم فورًا.

ـ انظروا إلى عينيه!

ـ عينا أسد، وصقر ونسر، في آنٍ.

ـ انظروا إلى مؤخِّرته!

ـ هُسسس، اسكت. اخجَلْ من نفسك، وصلت بك الحالُ إلى الحديث عن الشَّرف والخوض في الأعراض؟! لن أمنحكَ ريشة واحدة من ريشي. وأجدى بك قتلي قبل النَّيلِ مِن معطفي وموقفي.

انفضَّ الاجتماع. ومنذ ذلك الحين والخفَّاش عارٍ؛ لتنازله عن ريشهِ بسرعة. والبُوم عَبوسٌ، ناقمٌ على جُبن الطّيور، لا يشاركهم نهارهم، ويُؤْثِر العزلة والانطواء في أحضان الليل، متأمِّلًا في طبائعِ الخلق وعظَمةِ الخالق(1).

5/12/2022

أوستند – بلجيكا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هلوسات

أيُعقَلُ أنْ يمرَّ هذا اليوم هكذا، مِن دون تذكيري بشيءٍ اقترفتهُ في اليوم ذاته من السَّنوات السَّابقة؟ ومع ذلك، يبقى هذا اليوم ـ الفراغ، مَحسوبًا من عمري! هذا ليس شيئًا شبيهًا بـ"ألزهايمر"؛ بل فقدان كُلِّي للذَّاكرة القريبة والبعيدة.

كثيرًا ما يكرِّرُ الأدباء والكُتَّاب عبارة "يحدثُ أنَّ..." في مطالع نصوصهم، ثمّ يباشرون سردَ التَّفاصيل. لكنْ، الحال هذهِ؛ أشبهُ بـ"يحدثُ أنْ يمرَّ يوم من دون أن يحدث فيه شيء".

يومٌ من دون ذاكرة، أو لا يتذكَّر شيئًا، هل يمكننا اعتبارهُ أعمى؟ لكن العُمْي يتذكَّرون. إذن، هو يومٌ ميِّت. الموتى أيضًا يتذكَّرون. يومٌ عديمُ الذَّاكرة، وكفى. لكن، هل الوجودُ مشروطٌ ومنوطٌ بوجود الذَّاكرة؟

Telegram:@mbooks90

تناسلتْ في ذهنهِ كلُّ تلك الهلوسات، حين قرأ في خانة الذِّكريات على حسابه في "facebook": "لا توجد ذكريات"!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تثاؤب

كذُبٌ قطبي ضخمٍ يقفُ على قدميهِ، أغمضَ عينهُ اليُمنى، وزمَّ الأخرى، ومالَ برقبتهِ في مسعى الحصول على مزيد من الرُّؤية الواضحة، والدقَّة والتَّركيز في التَّصويب. لم يكن في حاجةٍ إلى كلِّ ذلك؛ لأنَّ المسافة بينه وبين الهدف، لم تكن تزيد على سبعة أمتار. لكن، اعتاد الجندي السُّوفياتي الأحمر نيكولاي بيتروفيتش مولداييف فِعلَ ذلك، ساندًا كعبَ البندقيةِ إلى كتفهِ اليُسرى، ممسكًا بيُمناه الضَّخمة كحجر الرَّحى بقطعة الخشب التي تحيطُ بعنق فوَّهتها، وسبَّابته اليسرى تحاصر الزِّناد. الجوُ قارسٌ يثلجُ بهدوء، وحكمُ الإعدام في مجموعة من الخونة، لا يقبلُ التَّأجيل.

ستَّةُ جنودٍ ثوريين وطنيين مخلصين أوفياء، سابعهم نيكولاي، واقفون على أهبة الاستعداد لتلقِّي الأمر بتنفيذ الحكم. ولأنَّهُ أعسر، وأضخمهم؛ كان ترتيبهُ الرَّابع، وفي منتصف الرَّتَل.

على تلك الهيئة من الانضباطِ والتَّصويب المتأهِّب، وفي تلك الحالة من الأعصاب المشدودة كأوتارِ القيثارة، في أثناء تلاوة لائحة الاتهام، وقبل الوصول إلى الحكم بالإعدام رميًا بالرَّصاص؛ لم يستطع نيكولاي كتم تثاؤبهِ. تثاءبَ بعمقٍ، مصحوبًا بصوتٍ مترعٍ بالنُّعاس، الملل والإرهاق، مُفَجِّرًا موجةً مدوِّيةً من الضَّحك، ليس فقط بين زملائهِ عناصر كتيبةِ الإعدام؛ بل في قائدها أيضًا. وسرعان ما انتقلَ الضَّحكُ إلى جمهرةِ القرويين الواقفة في السَّاحة لمشاهدة تطبيق العدالة الثوريَّة في حقِّ الخونة العملاء البرجوازيين. ثمَّ انتقلت موجةُ الضَّحك إلى المحكومين المقيَّدة أيديهم وراء ظهورهم. وحدَهُ نيكولاي حافَظَ على هيئته وصمته، ولم يعتدل، كتمثال من البرونز مكسوٍّ بالثلج في ساحة عامَّة، وكأنَّه ليس هو المتسبب في كلِّ ذلك الهَرج والمَرج!

في مسعى استرداد هيبة الثَّورة ومحاكمها الثَّوريَّة التي بددها تثاؤب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجندي؛ اضطُرَّ قائدُ الكتيبة إلى إعادة تلاوة لائحة الاتهام والحكم مجدَّدًا. لكن، قبل أن ينتهي، قاطعهُ الجندي نيكولاي بأنْ أطلق هذه المرَّة صيحةً مدوِّية: "سيرغي، صديقي سيرغي؛ ماذا تفعل بين هؤلاء الخونة، أيها الغبي؟!". قالها وهو يضحك، بعد رميهِ البندقيَّة أرضًا، واتَّجه إلى عناق الجندي الخامس الذي ينبغي تنفيذ الحكم فيه.

عين نيكولاي المزمومة كانت مركَّزة على الجندي الرَّابع، وفوَّهة بندقيَّته مصوَّبة إلى رأسِه. ولكن، كيف انحرفت عينه تلك نحو سيرغي؟ هو أيضًا لا يعرف ذلك.

اتَّجه نيكولاي نحو قائد الكتيبة وقال له بصوت يَملؤهُ الفجاءةُ والفرح وعدم التَّصديق: إنَّه صديق طفولتي؛ سيرغي رومانوفسكي، والدهُ خبَّاز القرية، لا يمكن أن يكون إقطاعيًّا وبرجوازيًّا يا سيِّدي، كنَّا نلعب هذه اللُّعبةَ نفسَها ونحن صغار؛ نحمل العِصِيّ ونعتبرها بنادقَ، ونصوِّبها في اتجاه بعضنا. صدِّقني. إنَّه سيرغي ابن العمِّ باول رومانوفسكي الخبَّاز.

كاد الجندي نيكولاي يصبح سادس المحكومين بالإعدام بسبب عصيانهِ الأوامر، ومحاولتِه الدِّفاع عن أحدِ المتآمرين البرجوازيين. لكن، شفع له رصيدهُ الكبير من المشاركات في عمليَّات الإعدام، وحُكِمَ عليه بالسَّجن سنةً مع الأشغال الشَّاقة.

أيُعقلُ أن يتثاءبَ جندي ثوري مناضل في أثناء تأدية مهمَّته الوطنيَّة النَّبيلة، ضمن فرقة الإعدام؛ كي ينقذ دولة الثَّورة والشَّعب من بعض أعدائها الأشرار؟! هل كان ذلك الفعل ناجمًا عن الجوِّ البارد والدِّفء الذي خلقته ملابسُهُ العسكريَّةُ الثَّقيلةُ المحشوَّة بالفِراء، أم هو الملل من سماع الخطابات الحزبيَّة الآيديولوجيَّة التي لم يكن يَفهمُ منها شيئًا؟! أم هو التَّعبُ الذي نالَه في ذلك اليوم، وفي تلك اللَّحظة الفارقة من حياة الضَّحايا؟! أسئلةٌ بقيت عالقةً في ذهن قائد كتيبة الإعدام الذي تحوَّل إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جنرالٍ متقاعدٍ، جعلَ من حادثة تثاؤب نيكولاي مولداييف مدخلًا لكتابة مذكّراته، عقب انهيار دولة الرُّعب والأكاذيب البروليتاريَّة الجميلة.

7/12/2022

أوستند

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

24 ثانية

وجودها في مسرح الحدث، لم يكن كعدمهِ. صحيح أنَّها الشَّاهد الوحيد، لكنَّه مضلل ومُخادع، ويكاد يكون متورِّطًا أو ضالعًا في تلك الجريمة. عينٌ اصطناعيَّة، هكذا سجّلت الواقعة:

السَّاعة 9:14 من مساء يوم 14 ديسمبر 2022. رجلٌ يترجَّل من سيَّارتهِ التي صفَّها في مرآبٍ مكشوف، يرتدي معطفًا، ويعتمرُ قبّعةً، يفتحُ مظلَّةً كي يدرأ عن نفسهِ المطر الغزير. يبدو أنَّه يودُّ التَّوجُّه إلى منزلهِ أو مكان ما قريب. الضَّوء الشَّحيح والمطر لا يُتيحان لعين الكاميرا رؤية ملامح الرَّجل بوضوح. كيف لعينٍ دامعة وسط عتمةٍ مشوبة بقليل من الإنارة أن ترى ملامح أيِّ شخصٍ يمرُّ أمامها؟! ينتهي المشهد -الذي مُدَّته 24 ثانية- بخروج الرَّجل من مدى رؤية تلك العين.

مع كُلِّ تِكرارٍ لتلكَ الـ24 ثانية، يُضافُ تفصيلٌ جديد إلى المشهد، لم يكن موجودًا في المرّة السّابقة! في المرَّة الثَّانية؛ يقفُ الرَّجل كي يشعل سيجارةً، بعد فتحهِ مظلَّتهُ. هذا التَّفصيل لم يكن موجودًا في المُشاهدة الأولى.

في المُشاهدة الثَّالثة، يمرُّ به رجلٌ آخر مسرعًا. من غير الواضح، إذا كان يتَّجه نحو سيَّارتهِ أم لا. هذا التَّفصيل لم يكن موجودًا في المشاهدة الثَّانية للفيديو.

في أثناء إعادة المشهد للمرَّة الرَّابعة، تظهر سيَّارة تحاولُ الخروج من المرآب بسرعة، تكادُ تدعسُ حاملَ المظلَّة، لكنه ينجو. أيضًا، هذا التَّفصيل، لم يكن موجودًا في المشاهدة الأولى، والثَّانية، والثَّالثة.

في تكرار الفيديو للمرَّة الخامسة، قبل خروج صاحب المظلَّة من مدى رؤية الكاميرا، يسقط أرضًا لسبب مجهول. هذا التَّفصيل لم يظهر في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أثناء مشاهدات الفيديو السَّابقة.

في المرَّة السَّادسة، الرَّجلُ الذي مرَّ بصاحب المظلة، بعد قَطعِه نحو خمسة أمتار، يعود مسرعًا نحوَهُ، كأنَّه يعرفه! أو نسي أن يقول له شيئًا! كذلك هذا التَّفصيل، لم يظهر في أثناء مشاهدة الفيديو في المرَّات الخمس السَّابقة.

في الإعادة السَّابعة، لا يظهر الرَّجلان أبدًا، وكأنَّ شيئًا لم يكن، ولا وجود للمطر أيضًا. سكونٌ مطبق، من الثَّانية الأولى حتّى الثَّانية التَّاسعة. في الثَّانية العاشرة يظهر ثلاثة أشخاص ملثّمين، يتبادلون إطلاق النَّار. وفي الثَّانية الرَّابعة والعشرين، إحدى الرَّصاصات تصيب عين الكاميرا، فتفقؤها.

في المرَّة الثَّامنة، السُّكون مخيِّم. لا شيء سوى مطر خفيف. في تمام الثَّانية الـ12 يعودُ الرَّجل صاحب المظلَّة، يفتح باب سيَّارته، ويخرج من المرآب في نهاية الثَّانية الـ24.

هكذا، كلَّما أعادَ الضَّابط المُحققُ فحص محتوى فيديو كاميرا المراقبة -كأيِّ إجراء طبيعي- نضجَ المشهد بتفصيل مستجد، لم يكن موجودًا في المشاهدات السَّابقة. الغريب في الأمر أنَّه بمرور 24 ساعة، ومعاودة مشاهدة الفيديو من جديد، لا تظهر كلُّ تلك التفاصيل إلا في مكانها، وفي أثناء مرَّات المشاهدات؛ الثَّانية، الثَّالثة، الرَّابعة، الخامسة، الثَّامنة... وهكذا.. وكأنَّ هناك روحًا شريرة تعبث بالفيديو، وتضيف إليه أو تحذف منه تلك التفاصيل، مع كلِّ إعادة مُشاهدة، بحيث تعود التفاصيل في المرَّة التَّاسعة، إلى ما كانت عليهِ في المُشاهدة الأولى.

انحرف التَّحقيقُ عن مسارهِ المتعلِّقِ بكشفِ ملابساتِ جريمةِ سرقةٍ وقتل، وتَحوَّل إلى ضرورةِ فكِّ لغزِ تحوُّلات تسجيل كاميرا مراقبة، مدَّته 24 ثانية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العندليب

الحاج عبد المنعم صابر الدَّكشوري، عمدة كفر "أبو راسين" التابع لمركز "فارسكور" في محافظة "دمياط"، رجلٌ أنعمَ اللهُ عليهِ بزينة الحياة الدنيا من أوسع أبوابها، وجَعلَ التُّقى والورع والحكمة تاجًا على رأسهِ. لكنْ، حَرَمهُ الله شيئًا بقي يعذِّبه طَوال حياتهِ.

وُلِدَ في 15 يناير 1918. ذهب إلى الكُتَّاب، وحَفِظَ القرآن عن ظهر قلب، ولم يستطع تلاوتَهُ جهرًا! غصَّةُ قراءة كتاب الله بصوتهِ -سواء لنفسهِ أم لأولادهِ وأحفادهِ- رافقتهُ إلى القبر.

مُكرهًا وعلى مضض تزوَّج ثلاث مرَّات، ورفض أن يختمها بالرَّابعة. له من زيجاتهِ تلك، اثنا عشر ولدًا وخمسُ بنات. اسمهُ يلمع، كالجنيه الذَّهب، في تجارة الخشب والموبيليا، وفي سوق الفاكهة والخضار أيضًا.

ربَّما تنتظرون أن أقول لكم: "كان عصاميًّا، كوَّنَ ثروته وسمعتهُ من الصِّفر". لا طبعًا. أورثهُ والدهُ الحاج صابر: الصَّبرَ، قبل أن يورثهُ المالَ والعُمودية. حتَّى عبارته المشهورة المتداولة: "صحيح أن اسمها كفر أبو راسين، لكنها لا تُدار إلَّا برأسٍ واحد فقط"، هي أيضًا ورثها مِن والدهِ. وأضاف إليها شيئًا من خلاصة تجربتهِ بالقول: "العموديَّة والسلطة، كالزَّوجة؛ لا تقبل القسمة على اثنين". ومع ذلك، لم يكن متكالبًا أو متقاتلًا على كرسي العموديّة. يُحسِنُ إلى قروييه والفقراء من أبناء القرى المجاورة، يَحسدهُ خصومهُ ومنافسوهُ في السُّوق، ولا أعداءَ له. يتجنَّبُ الدُّخولَ في صفقاتٍ الفوزُ بها ربَّما يكون فيه "خراب دار" لتجَّار آخرين، وإذا داسَ أحدهم لهُ على طرف، من دون وجه حقٍّ، تراهُ يرفض الظلم، ومستعدًّا للقتال بقبضتَيْ يديه، وبـ"النبُّوت"، "زي أجدعها فتوَّة" من الذين نراهم في الأفلام المصريَّة!

تجاوز صيتهُ "فارسكور" و"دمياط" ووصل إلى "الإسكندريَّة"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

و"القاهرة". كان حريصًا -أشدَّ الحرص- وحذرًا جدًّا على عدم التدخُّل في السِّياسة، لا مِن باب الدِّين والإخوان، ولا من باب القوميَّة والثَّورة والاشتراكيَّة والفلاحين ضدَّ الإقطاع والبرجوازيَّة. يَعشقُ تراب كفر "أبو راسين" ومصر، ويكرهُ السِّياسة والأحزاب.

سنة 1966 عرضوا عليه الترشُّح للانتخابات، فرفض. جاءَ رفضهُ دبلوماسيًا، بنكهة الشُّكر والاعتذار. حاول الإخوان والسَّلفيون استمالتهُ، وفشلوا.

لم يعرف الحاج عبد المنعم أنَّ تاريخ مولدِهِ هو نفسه تاريخ مولد جمال عبد النَّاصر، ولم يعرف أنَّهُ سيغادرُ الحياةَ في 28 سبتمبر 1970. ومع ذلك، لم يستطع أن يحبَّ عبد النَّاصر، ولم يكرههُ أيضًا. حين كانت مصر تشيِّع زعيمها الأسمر، كذلك كان أبناءُ وقرويو كفرِ "أبو راسين" يشيِّعون رأسهم وعمدتهم وزعيمهم الذي بكتْه الأعين، ورَثَته الحناجر، وندبتهُ النِّسوة بالعويل والصِّياح واللَّطم؛ حزنًا وحِدادًا، وقيلت في حقِّه الأغاني الشَّعبيَّة.

على سجَّادة الصَّلاة -سواء في منزلِهِ أم في جامع القرية الذي بناه الحاج عبد المنعم- بقيَ دائمَ الحمدِ والشُّكرِ لربِّه على نِعَمِهِ التي لا حصر لها. لكن، كان يبكي ويشكو ويناجي ربَّه بأن يرفع عن أبنائِهِ وأحفادِهِ البلاءَ الذي انتقلَ منهُ إليهم!

الحاج عبد المنعم، كبيرُ إخوته، والدهُ وإخوتهُ صحيحو وسليمو النُّطق، أما هو؛ فالتأتأة علَّتهُ، تلجمُ حديثَهُ، وتعصمهُ من الكلام المفهوم الواضح السَّليم. يبدأ الكلام بالتَّعسُّر وتكرار الحرف الأوَّل، ويتعثَّر في تكوين جملة مفهومة، فيُضطر إلى تَكرارها، كي تصل فكرته إلى مستمعه. نذرَ لربِّه أنَّه إنْ رزقهُ ولدًا صحيحَ النُّطق، فسيبني جامعًا في القرية. بنَى الجامع، ولم تتحقق أمنيتهُ. تزوَّج ثلاث مرَّات، على أمل أن يأتيه ولدٌ طليقُ اللِّسان،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محلولُ العقدةِ منه، لكنَّ أبناءهُ الاثني عشر يُتأتئون! انتقلت هذه المشكلة إلى الأحفاد وأبنائهم أيضًا، كأنَّها لعنة جدِّهم.

اليوم 28 سبتمبر 2023، تمرُّ الذكرى الثانية والخمسون لوفاة الحاج عبد المنعم صابر الدَّكشوري. زارهُ حفيدُهُ، عمدة كفر "أبو راسين"، وبعد قراءة الفاتحة لهُ، قال هامسًا لشاهدِ قبر جدِّه: "نَمْ قرير العين يا حاج. أبشِّركَ، حفيدكَ؛ عبد المنعم يوسف بدران عبد المنعم صابر الدكشوري، الذي رزقني الله به في 25 يناير سنة 2011، لسانهُ صحيح، لا يدخل إلى حلقه؛ يقرأ القرآن، يقرأ الأشعار، يغنِّي أحلى وأحسن من العندليب الأسمر، كمان".

13/12/2022

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غزال المزابل

لا أحد يناديه باسمهِ. إذا ناديتموه عشر مرَّات، فلن يستدير نحوكم، إلَّا إذا ذكرتم لقبه. تلك الشَّتيمةُ التي تحوَّلت إلى اسم بديل لصيق به؛ لم تشكِّل له حرجًا في أيِّ يومٍ من الأيَّام. ليسَ معروفًا مَن أطلق عليه ذلك اللَّقب الغريب المضحك؛ النَّتن، وباللُّغة الكرديَّة: Genî. لكن الجميع يعرف أنَّ سببهُ؛ تردُّدهُ الدَّائم إلى المزابل الموجودة خارج البلدة. غربها، تلَّة تنحدرُ ثلاثين إلى أربعين مترًا نحو مجرى نهر صغير جفَّ ماؤهُ، مليءٍ بالنُّفايات. ذلك التلُّ كان اسمهُ "زورافا"، كلَّما ذهبنا للتزحلق، واضعين تحتنا أوانيَ البلاستيك المكسورةَ المرميةَ كي نزيد سُرعتَنا؛ كنَّا نجدُ Genî هناك، فوق أكوام الزُّبالة في استقبالنا! نحن زُوَّار طارئون على تلك المنطقة، نلهو قليلًا ونغادر، وهو عُمدتها الدَّائم، وهي عرشهُ ومَعقِلهُ.

طفلٌ أسمرُ، لا تبدو عليه ملامح الشَّر، ولا ملامح البراءة، نحيل الجسم، رشيق، سريع الحركة، كأنَّه كلبُ صيد. يَكرهُ المدرسة، لكنَّه يذهب إليها على مضض؛ لأنَّ جميعَ أصدقائهِ يذهبون إليها من الصَّباح حتَّى الظَّهيرة، ولا يبقى أحد يقاسمه وقته. لا نعرف كيف وصل إلى الصَّف السَّادس، وهو لا يجيد القراءة والكتابة وجدول الضَّرب! إذا سأله أحد: 5X9، فسيجيبهُ: 9 بعد تفكير عميق. "لماذا يا Geni؟". لأنَّ 9 أشخاص في مقدورهم ضرب 5!

حتَّى الصَّف الرَّابع الابتدائي، بذلت المُعلِّمة مجهودًا كبيرًا كي يتوقَّف عن تحويل "في" إلى "ثمَّ" في أثناء القراءة! كلَّما قرأ جُملةً تحتوي على حرف الجرّ "في"، قرأها "ثُمَّ"! وبقي سبب ذلك، لغزًا حيَّرَ الجميع!

مع كلِّ الكسل والفشل الدِّراسي، فإنَّهُ في أثناء المباريات بين فريق مدرستنا وفِرق المدارس الأخرى ترتفع أسهم Genî؛ لأنَّه غزال في الجري، لا يتعب، خاطفُ كراتٍ بارع. صحيح أنَّ مهاراته الفرديَّة لم تكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

توازي مهارات جُعو (جمعة)، إلَّا أنَّ Genî كان كالجرادة التي تخطف وتقفز. ربَّما تشبيهه بالكلب السُلوقي أكثر دقَّة. حين تصل إليهِ الكرة، نبدأ في الصُراخ والتشجيع: "Gennî.. Gennî.." فتصل سرعتهُ إلى الحدود القصوى. وهكذا، يتحوَّل إلى أحد أسباب فوز فريق مدرستنا، ويدخلها محمولًا على الأكتاف ومع الهُتافات، دخولَ الفاتحين!

كان طفلًا عنيدًا، صبورًا، وخدومًا. لديهِ مهارات أخرى تتعلَّق بإعادة تدوير الزُبالة. هناك، تظهر المواهب الإبداعيَّة في شخصيَّة Genî. لا تستغربوا ذلك. يبحث بين أكوامها عن زجاجات قطرات العين، يجمع قطع البلاستيك الملوَّنة، يختار مجموعة ألوان، يمسك الزّجاجة الصَّغيرة بإبهامه وسبَّابته، وباليد الأخرى يحمل قطعة بلاستيك تحترق. بحذَرِ أطباءِ التَّحاليل والمختبرات وعلمائها، يجعلُ قطرات البلاستيك المُذاب المحترق تتساقطُ داخلَ الزُّجاجة الصَّغيرة. بعد مَلئها، وقبل أن يبرد الخليط، يعقف سلكًا، ويغرسهُ في المزيج؛ كي يتحوَّل إلى نصفِ حلقة. عقِبَ تماسك المزيج يكسر الزّجاجة، فتظهر كتلةُ البلاستيك الملوَّن أسطوانيَّة الشَّكل، علّاقةَ مفاتيح، صنعها Genî من الزُّبالة، بمهارة، نحسدهُ عليها.

مضت السَّنوات، تعدَّدت الرِّوايات التي تحدَّثت عن مآلات ومصير أحمد Genî. روايةٌ تقول: إنَّه تحوَّل إلى مناضل ثوري كبير ومُهم، لكنَّه بقي يُكذِّب الآلات الحاسبة حيال نتائج جدول الضَّرب، وفقَد حياتهُ في إحدى المعارك.

رواية أخرى تقول: إنَّه أصبح تاجرًا كبيرًا، يدير مصانع تدوير النُفايات. لكن، ما يزال يخلط بين "في" و"ثمَّ" في أثناء القراءة.

الرِّواية الثَّالثة تقول: إنَّه قُتِلَ على طاولة القمار، في أثناء دخوله رهانًا انتحاريًا في لعبة "الرّوليت الرّوسيَّة" مع مقامر آخر، لكن الرَّصاصة أتتهُ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من الخلف.

الرِّواية الرَّابعة -وهذا ما أرجّحهُ وأميلُ إليه- أنَّه حين أصبح ميسور الحال وتاجرًا، لم يندمْ على أيِّ شيء اقترفهُ في طفولتِهِ، باستثناء شيءٍ واحد فقط؛ هو تحطيمه صلبان مقابر المسيحيين. لا يعلمُ مَن لقَّنه كراهية الصُّلبان حينئذٍ! ذهب إلى الكنيسة، وقدَّم اعتذارهُ عمَّا فعلهُ في طفولتهِ، وعبَّر لهم عن رغبتِهِ في ترميم كلِّ القبور وصلبانها، وبناء سور عالٍ يحمي مقابر المسيحيين في البلدة. قبلت الكنيسة اعتذارهُ، وشكرتهُ على مقترحه، واعتذرت لعدم الموافقة على مشروعه.

بالرَّغم من أنَّه أظهر مَيلًا إلى التديُّن، وأطلق لحيتهُ، وصار مواظبًا على حضور صلاة الجمعة؛ فإنَّ أهل البلدة عثروا على جثَّة التَّاجر أحمد Genî مقتولًا برصاصة في الصُّدغ.

6/12/2022

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بُرتغالي في دمشق

شهرُ مايو في ذلك العام كانَ عنيدًا، قويًا، لا يودُّ المغادرة. لو قُيِّضَ لهُ الأمر لبقي مكانهُ، وحالَ دونَ مجيءِ الصَّيف. أحدِّثكم عن سنة 1933. بينما يقرأ فرناندو بيسوا أشعارَهُ في المقهى البرازيلي في حي "كيدو" بـ"لشبونة"؛ قاطعهُ فتًى في العاشرة من عمرهِ، يعمل ماسح أحذية، وقال: "اسمح لي يا سيِّدي أن أشكرك على ثرثراتكَ التي لا أفهم منها شيئًا؛ لأنَّها تساعدني على تأمين خبزي. واصِلْ مسحَ أدمغتهم بفرشاة كلامك؛ كي أواصلَ مسح أحذيتهم"! انفجر المقهى بالضَّحك، ومِن بين الذين علت قهقهتُهم، بيسوا نفسُه.

ذهبت مقولةُ الفتى مثلًا يتداوله جمهور ماسحي الأحذية، وجمهور الأدباء والشّعراء في لشبونة. ليس هذا وحسب؛ نَقَدَهُ بيسوا مِن دون السَّماحِ له بمسح حذائهِ.

بفضلِ ذلك التَّعليق الطَّريف المفاجئ، ومقاطعته الشَّاعرَ الكبير بتلكِ الطَّريقة الظَّريفة البريئة؛ ذاعَ صيت الفتى، وصار أشهر من نارٍ على علم، وأصبح حديث الصَّحافة، بعناوين عدَّة: "الصَّبي الذي قال لبيسوا: أنت ثرثار"، "ماسح الأحذية الذي قاطع بيسوا"، "نحبُّ ثرثرة الشّعراء، ولا نفهمها"... وعناوين كثيرة تصدَّرت المقالات وأعمدة الرَّأي في الصَّحافة الثَّقافيَّة.

اجتهد النُّقَّاد في تدبيج التَّأويلات لتلك الحادثة؛ عبر المقارنة بين الرؤوس والأحذية، على أنَّ هناك رؤوسًا تفكِّر كالأحذية، وأن الرُّؤوس من غير قراءةٍ وتذوُّقِ الشِّعر محضُ أحذية... وأفكار وأشياء أخرى من هذا القبيل! ذلك الفتى البائس الفقير، المهلهل الثِّياب، كان يُدعى ماتيو غونزاليس دي سيلفا.

مات بيسوا في نهاية نوفمبر 1935، فحزن ماتيو على رحيلهِ، وحزنَ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أكثر على عدم تمكُّنه من المشاركة في جنازتهِ. شعرَ تجاهه بالشكر والرِّضا، وبفضلِ الشَّاعر عليه مِن حيث لم يحتسب. لو عَرَف موعد جنازتهِ ومكان دفنهِ، لربَّما أخذ صندوقه معهُ، وشارك في التَّشييع، والتَقط بعض الزَّبائن في المقبرة، أو على بابها.

مضت سنوات. توسَّع نشاط ماتيو وعمله، فاستبدلَ بصندوقِهِ "كُشكًا" صغيرًا لتصليح الأحذية وتلميعها. ليس بعيدًا منهُ، كانت طواحين الحرب العالميَّة الثانية تطحن الأخضر واليابس. وبالرَّغم من أنَّ البرتغال التزمت الحياد؛ فإنَّ الشَّاب غادرَ بلدهُ إلى أمريكا في صيف 1943؛ بحثًا عن مستقبل أفضل. هناك، في ديار الغربة، لم تكد تمضي بضع سنواتٍ، حتَّى صار الحنينُ يلاحقهُ مُلاحَقة الشرطة مرتكبَ جريمةِ قتْل، ويلقي القبض عليه، ويجلدهُ بقسوة، ويودِعه سجنًا انفراديًّا اسمه النوستالجيا.

برقت في ذهنهِ فكرةُ العودةِ إلى قصائد فرناندو بيسوا؛ تعويضًا عن الوطن. لكن، كيف له تأمين كُتبهِ المنشورة باللغة البرتغاليَّة على أرض الأمريكيين؟! صار يتردَّد كثيرًا إلى المكتبات. حالفهُ الحظُّ في العثور علىٰ بعض كتبهِ المترجمة إلى الإنجليزيَّة. والحظُّ حصانٌ قلَّما يحالفُ تائهًا.

في سنِّ الخامسة والعشرين، وعلى أرضٍ بعيدة وغريبة؛ اكتشف الفتى البرتغالي عظَمةَ شاعرِ بلاده؛ بيسوا، وعَرفَ بلاهةَ وسخافةَ تصرُّفه؛ عندما وصف أشعارهُ بـ"الثَّرثرات". شعرَ بالنَّدم المشوب بالخزي والخجل ممَّا اقترفه، حين كان في العاشرة من عمره.

في أحد أيَّام نوفمبر 1950، وبينما كان جالسًا في مقهًى برازيليٍّ في العاصمة "واشنطن"؛ طلب منهُ أحد مصوِّري الشَّوارع، التقاطَ صورةٍ له. ابتسامةُ الرِّضا، والفضول والسَّعادة، سبقتهُ إلى إعطاء المصوِّر الموافقة. التقطَ له عدَّة صور من زوايا مختلفة. أعطاهُ واحدة منها، واحتفظ بالباقي. فنقدَهُ ماتيو ثمنها، وسألهُ:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ ما الذي جعلكَ تختارني من بين الجالسين والجالسات في هذا المقهى لالتقاط صوري؟!

ـ لأنَّك تشبه شاعرًا برتغاليًّا أُحبُّ قصائدهُ، يقالُ له: فرناندو بيسوا! أجابهُ المصوِّر.

صعقته الإجابة. الصُّورة الملتقَطة له كانت البديلَ عن المرآة. نظر ماتيو إلى نفسه في الصورة - المرآة؛ رجلٌ بربطةِ عنق، يرتدي معطفًا، ويعتمرُ قبَّعة، بوجهٍ متطاول قليلًا، وعينين صغيرتين، يعلوهما حاجبان عاديان، فوقهما نظارة طبيَّة بعدستين دائريتين، وأنفٍ كبيرٍ، أسفله شاربان رقيقان مُشذَّبا الطَّرفين. لأنَّ ملامح بيسوا وهيئته مألوفتان بالنِّسبة إلى ماتيو؛ تأكَّد له أنَّ المصوِّر عَنى ما قاله. جالَتْ نظراتُهُ أرجاء المقهى باحثًا عن المصوِّر كي يسأله: "هل أنتَ برتغالي؟"، فلم يجدهُ. ثمَّ قال في نفسه: يا لَبلاهةِ وغباءِ سؤالٍ كهذا! ليس بالضَّرورة أن تكون أمريكيًّا كي تحبَّ شاعرًا أمريكيًّا.

بلغ ماتيو غونزاليس دي سيلفا الخامسة والسِّتين. صار شاعرًا معروفًا، يقرأ قصائدَهُ في ذلك المقهى البرازيلي بـ"واشنطن"، حتَّى إنَّه بات يسمَّى باسمه: مقهى ماتيو دي سيلفا. في كلِّ أمسية له، قبل قراءته قصائدَهُ وفي أثنائها وبَعدها؛ يجول بنظراته في أرجاء المقهى، لعلَّه يجد ذلك المصوِّر الذي التقط له تلك الصُّورة التي ما زال يحتفظ بها.

في مايو 1989 كان ماتيو غونزاليس دي سيلفا مدعوًّا إلى معرض الكتاب في دمشق. بعد جولة في المدينة القديمة وسوق الحميديَّة والجامع الأموي؛ جلس في مقهى "النوفرة" الذي يقابل الجهة الجنوبيَّة من الجامع. لم يكن وحدَه؛ معه ثلاثة أشخاص آخرين: شاعر كردي من العراق، وروائيَّة تركيَّة، وشاعر سوري. الأخير يتواصل معهم باللغة الإنجليزيَّة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ما إنْ وضعَ النَّادل طلباتهم على الطَّاولة، حتى فوجئ ماتيو بطفل في العاشرة يحمل على كتفه صندوق مَسح أحذية، وينادي: مَن يريد مسح حذائه؟ ذلك المشهد أعادهُ 56 سنة إلى الوراء، حين كان يحمل صندوقًا شبيهًا، ويجوب شوارع ومقاهي لشبونة.

أطلق النَّادل صيحةً تنبّه الطِّفلَ إلى ضرورة الخروج والابتعاد، وعدم إزعاج الزَّبائن؛ وأنَّه لا أحدَ في المقهى يريد مسح حذائهِ. ذلك التَّنبيه كان روتينيًّا شكليًّا لزومَ رفع العتب، في حين لم يكن النَّادلُ يمانع أن يلتقط الفتى رزقهُ من بين أقدام زبائن المقهى. أشار إليه ماتيو بالاقتراب.

رائع؛ التقط نداؤهُ زبونًا، وهذا يكفي لأنْ تفيضَ عينا ماسح الأحذية الصَّغير لمعانًا وبريقًا وسرورًا.

ـ ما اسمك يا فتى؟ سألهُ ماتيو. عاونهُ الشَّاعر السّوري في التَّرجمة.

ـ ميتان أوسي. لكن أمِّي وإخوتي وأصدقائي ينادونني: ماتيو.

حال سماع التَّرجمة، جحظت عينا الشَّاعر الغريب اندهاشًا وسعادةً. عثرَ على ماسح أحذية، في دمشق، يحمل اسمه؛ ماتيو آخر، في زمان ومكانٍ مختلفين. "كيف جرى ويجري ذلك، بحق السَّماء؟!". سأل العجوز البرتغالي نفسَهُ.

ـ لماذا لستَ في مدرستكَ الآن؟! ماذا يعمل والدك؟

احمرَّت عينا الفتى، واحتقنتا بالدَّمع. كأيِّ رجل عنيد يعتصم بالكبرياء، ويرفض الاستسلام للبكاء؛ جاهدَ ميتان الكُرديُّ في حبس دمعتهِ، لكنه فشل. حاول إخفاءَها بأنْ طأطأ رأسه.

عرف ماتيو أنَّ سؤالهُ غير المتوقَّع لامسَ في الفتى جُرحًا أليمًا وغُصَّةً شديدة. شعرَ بالنَّدم، والخجل والأسف. اعتذر إليهِ وربَّتَ على كتفهِ، وأعطاهُ ورقتين من فئة عشرة دولارات، مُعيدًا الابتسامة إلى وجهه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطّفولي المعذَّب، فزال الشُّحوب منه، وعاد التّورُّد إليه.

انحنى كَيْ يباشر عملهُ بمسح حذاء زبونهِ العجوز. أزاح ماتيو قدمَهُ ومنعَهُ من ذلك، وسط استغراب ودهشة الطِّفل. طلب من جليسه السّوري إخبار الفتى بأنَّ ذلك المبلغ هدية له، وأنَّ اسمه أيضًا: ماتيو.

زاد السُّوري في الكلام قائلًا: "أعطِ العشرين دولارًا لأمِّك؛ كي تحوِّلها إلى اللِّيرة السوريَّة، تلك النّقود هي أجرة عملك لشهر، وربَّما أكثر". قالها لظنِّهِ أنَّ الطِّفلَ يتيمُ الأب.

بينما همَّ الفتى بحمل صندوقه الصَّغير؛ كي يعود مسرعًا إلى المنزل، وإذا بمصوِّر فوتوغرافي يدخل المقهى حاملًا كاميرا تصوير فوريَّة. كذلك هذا المشهد أعاد الشَّاعر البرتغالي إلى الوراء، حين التقط له المصوِّر الأمريكي تلك الصُّورة التي ما زال يحتفظ بها.

فورًا، انتبه المصوِّر إلى تلك الطَّاولة التي اجتمع حولها أناس تبدو عليهم سَحْناتُ السيَّاحِ الغُرباء. من خلف نظَّارته ذات العدستين الدَّائريتين السَّميكتين تدفَّقت نظراتُ التّرقُّب والانتظار في استئذان التقاط صورة له؛ كي يوافق. عينا المصوِّر كانتا أيضًا تنتظران أحد الجالسين كي يطلب منه التقاط صورة جماعية أو فرديَّة. ملَّ العجوز البرتغالي الانتظارَ، وعِيلَ صبرُهُ. هيَّأ نفسَهُ كي يرفعَ يدهُ مشيرًا إلى المُصوِّر بالاقتراب، وإذا بصوتٍ يصدر من طاولة أخرى، تطلب منه التِقاط الصُّوَر التَّذكارية لهم.

طرح الشَّاعر السُّوري ذلك السُّؤال الرُّوتيني على ضيوفه؛ كيف وجدوا دمشق؟ لكنَّ أنظار العجوزِ مصوَّبة إلى المصوِّر. حضَّرَ إجابة مختصرة وعاديَّة، وينتظر دورهُ في الكلام؛ كي يقول رأيه بسرعة، ثمَّ يطلب من المصوِّر التَّوجُّهَ نحو طاولتهم. جاء دوره في الكلام، فقال: "هذه المرَّة الثَّالثة التي أزور فيها دمشق. زرتها مرَّتين سائحًا، والآن أزورها شاعرًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إنَّها مدينة رائعة". ما إنْ أنهى تعليقهُ المقتضب حتّى جال بنظراته في أرجاء المقهى، فلم يجد المصوِّر. كأنَّه تبخَّر!

في مطار دمشق سمع ماتيو العجوز التَّنبيه الرُّوتيني: "على السَّادة المسافرين إلى لشبونة على متن الرحلة TKP 442 ضرورة التوجُّه إلى البوابة رقم 7. وشكرًا". حثَّ الخُطى نحو تلك البوابة، كأيِّ مسافرٍ مستعجلٍ متأخِّر. قبل الصُّعود إلى الطَّائرة. قالت له الموظَّفة التي تفحص التَّذاكر وهي مبتسمة: سيِّد دي سيلفا، أرجو المعذرة، رحلتك متَّجهة إلى واشنطن، وعلى متن شركة طيران أمريكيَّة، وليست إلى لشبونة!

14/12/2022

أوستند – بلجيكا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اختفاء ديك رومي

كان شتاءً مشهودًا له بالمطرِ الغزير، والخير الكثير، والبردِ القليل. هذا ما أكَّدهُ صيفُ 1988 حين كشفَ النِّقاب عن الغلال الوفيرة من القمح التي فاضت بها الحقول.

فكَّرَتِ العَمَّة Gulê (وردة) أن تُفرِح أيتام ابنها بشراء ديك رومي، تذبحهُ لهم ليلة رأس السَّنة. كان ذلك طقسًا اتَّبعهُ ابنها قبل مغادرته الحياة صيف 1980. رَحلَ ودُفِنَ في الطَّرف الشَّمالي من الحدود التّركيَّة – السّوريَّة، تاركًا ستَّة أيتام في رقبة أمِّهم وجَدَّتهم. توفيرُ ثمن الدِّيك الرُّومي مِن أسرار الجدَّة، لم تفصح عنها. والجدَّات دائمًا خزائن أسرار، قصص وحكايات.

مطلع الأسبوع الأخير من ديسمبر 1987، يرافقها حفيدها ذو الاثني عشر عامًا، نزلتِ العجوزُ الكرديَّةُ السبعينيَّةُ سوقَ "الدِّرباسيَّة"؛ تلك البلدة الصَّغيرة التي رسمها الفرنسيون على شكل مربعات، كأنَّهم يرسمون رقعةِ شطرنج. يدها السَّمراءُ الصَّغيرةُ المتغضِّنة، النَّافرةُ العروق، لا تملُّ من تحسُّس جيبها؛ كي تتحقق من وجود كيس نقودها الدَّافئ فيه. السّوقُ عامرٌ، مزدانٌ بالفاكهة والمكسَّرات التي لا تظهر إلَّا في هذه الأوقات من السَّنة. رؤية الموز مثلًا، كان مشهدًا رهيبًا ونادرًا حدوثهُ.

بعد شرائها ما تحتاج إليهِ أسرتها، اتّجهت نحو مركز السُّوق، وإذا برجلٍ يقفُ على أحد الأرصفة واضعًا يديه في جيبَيْ معطفه الرِّيفي الأسود، لافًّا وشاحهُ الأحمر حول رأسه ووجهه، مُبقيًا عينيهِ مكشوفتين، كأنَّ البرد غزا نخاع عظامه، ويشدُّدُ خناقهُ عليه، ويجلدهُ. لكن البرد؛ لم يكن بتلك الحدَّة والجبروت والفظاظة، ولم يكن لطيفًا حميمًا مسالمًا أيضًا. أمامَ الرَّجل المُلثَّم ديكٌ رومي، مربوط القدمين ذليلًا مهانًا كأيِّ أسير حرب مهزوم في قبضةِ جيش منتصر. الهيئة توحي بأنَّ الدِّيك للبيع،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وصاحبهُ ينتظر زبونًا. اقتربت منهُ العجوزُ اقترابَ صيَّاد من طريدة، بهدوءٍ مشوبٍ بالثِّقة والأمل. ألقت عليه التحيَّة، وسألته: "بكم تبيع ديكك؟". أجابها من خلف الوشاح: "بمئة وخمس وسبعين ليرة".

حاولتِ المفاصلة في السِّعر، وقالت: "بهذا السِّعر يمكنني شراءُ خروف أو جَدْي. أشتريهِ منكَ بمئة وخمسين فقط". ردَّ الرَّجل بلؤم ودُعابة: "عليكِ بشراء الخروف"!

شعرت العجوز أنَّ الرَّجل عصيٌّ وعنيد، فردَّت عليه: "لا تكابر. أيُّ ديكٍ نهايته الذبح، والاستواء على طبق من الأرزِّ أو البُرغول"، واختتمت كلامها بضحكة.

"مئة وخمسة وستون"، قالها وفكَّر قليلًا: "منذ الصَّباح وأنا هنا، لم يسألني أحد عن سعر الدِّيك، وقارب النَّهار على منتصفهِ، يجب عليَّ العودة إلى القرية قبل حلول المساء، ولن أعود خاليَ الوِفاض حاملًا ديكي، ولو طلبَتْهُ بمئة ليرة، فسأبيعهُ إيَّاها".

- مئة وخمسون، وأنتَ الرَّابح، ماذا قلتَ؟

- موافق. بِعتُهُ.

سلَّمتهُ المبلغ، وطلبت من حفيدها حمل الدِّيك. كان ثقيلًا عليهِ. البيت يبعدُ عن السُّوق مسافة كيلومترين تقريبًا. وصل الفتى إلى البيتِ ودَخلهُ مُتعرِّقًا بسبب الحرارة المنبعثة من جسد الدِّيك، والجهد الذي بذلهُ في حملهِ.

اختلفت الأمُّ مع حماتها في شراءِ الدِّيك، وأنَّ ثمنهُ يعيِّشهم أكثر من أسبوع، رغم معرفتها أنَّ الجدَّة فعلت ذلك لإسعاد الأولاد. وتذكَّرت زوجها، حين كان يختتم سَنَته بنحر ديك رومي، يزيِّن به مائدة الاحتفال بعامٍ جديد. آخِر مرَّة فعلها كان نهاية ديسمبر 1979.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فكُّوا وَثَاقه. مُدللًا معزَّزًا مُكرَّمًا أدخلوهُ الكوخَ المخصَّص للغنم الموجود في نهاية الحوش، كما يُدخَلُ الكبشُ الفحلُ على نعجةٍ. لكن، ما مِن دجاجة روميَّة تسرُّ خاطر الدِّيك الَّذي يفترض أنَّه للذَّبح، ثمَّ السَّلق والقلي، وسيكون عشاء الأيتام الستَّة، وأمِّهم وجدَّتِهم، في ليلة رأس السَّنة.

صبيحة اليوم الموالي، في أثناءِ تفقُّد الأم حظيرتها الصَّغيرة، وتعليف نعجتها والمعزتين، فوجئت باختفاءِ الدِّيك! بدأت البحثَ عنه في الحوش الصَّغير الذي لا تتجاوز مساحته مئةً وخمسين مترًا مربعًا، لربَّما اختبأ خلف برميلِ المازوت، أو برميل الماء، أو أيِّ كيس، أو بعض الكراكيب الموجودة في الزَّوايا. لكن، عبثًا. صارت تسأل الجيران: "هل رأى أحدكم ديكًا روميًّا، اشتريناهُ أمس لنحرهِ ليلةَ رأسِ السَّنة؟". أيضًا، من دون إجابة.

مع حلول المساء، تراجعَ الأملُ، وكاد يلفظُ أنفاسَهُ. لم يخطر ببالهم البحث في المنزل المهجور الملاصق لدارهم من الجهة الجنوبيَّة. الحائط الفاصل بين الفناءين طينيٌّ ومتهالكٌ، ليس صعبًا على الدِّيك القفزُ فوقهُ.

في صباح اليوم الموالي، حملت الأمُّ عصًا غليظة، وبرفقة ابنها الذي حمل الدِّيك، ذهبا إلى حوش البيت المهجور. بابهُ نخَره الصَّدأ. قبل الوصول إليهِ لاحظا خروج كلبين شاردين منه. تحسَّبا لوجود أعداد أخرى من الكلاب الشَّاردة، فتحا الباب بحذر، جالا بنظراتهما في أرجاء الحوش قبل دخولهِ. شجرتا توت، وأخرى للتين، ورابعة للرمَّان، ودالية عنب عارية من الأوراق، وثلاث أشجار حُور، الكثير من القمامة منتشرة. بعد أن تَحققا من خلوِّهِ دخلاهُ بحذر. رأت الأمُّ ريشًا للدَّجاج الرُّومي. اقتربت أكثر من شجرة التُّوت الكبيرة، فرأت المتبقي من الدِّيك؛ عظامه وريشه. قُضي الأمر، وطُويت صفحة البحث عن الدِّيك الذي صار في بطن الكلاب الشَّاردة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بدأت الأمُّ تلوم نفسها؛ كيفَ لم يخطر ببالها احتمال هرب الدّيك؟ لماذا لم تربط قدمه بخيط متين يَحول دون خروجه من الكوخ؟

القروي الذي أتى به إلى سوق البلدة كي يبيعهُ اسمهُ عبد الباقي، كرديٌّ فقيرٌ مُعدِم، يعمل فلاحًا أجيرًا في أراضي الآخرين. ماتت زوجته بعد أن أنجبَت له طفلًا؛ فزوَّجوه فتاةً فاتها قطار الزَّواج. حماهُ الحاج إبراهيم الكيكي، يسكنُ قريةً مجاورة، يملك دكّانًا في السّوق. يوميًا يستقلُّ درّاجتهُ النّارية صباحًا إلى دكّانهِ، ويعودُ قبل حلول المساء إلى قريتهِ.

حالَ إنجاز عبد الباقي صفقته الرّابحة، وبيع ديكه للعجوز؛ اتّجه إلى دكّان حماه؛ كي يشرب كوب شاي. في أثناء ذلك، دخل عليهما رجلٌ يبيع أوراق اليانصيب، وحاول إقناعهما بشراء ورقة، وأنَّ جائزة تلك السّنة مليونا ليرة. ردَّ عليه عبد الباقي ضاحكًا؛ إنَّهُ جرَّبَ حظَّهُ في الدُّنيا، وكان زِفتًا وقطرانًا. استمرَّ بائع اليانصيب في محاولاتهِ -كأيِّ شخصٍ يحاولُ التّسويق لبضاعتهِ- إلى أن نجح في إقناع صاحب الدكّان وصهره بشراء بطاقة واحدة يتقاسمانِها. كان سعرها 150 ليرة، دفع كلُّ واحد منهما 75 ليرة. تلك كانت أوّلَ مرّة يشتري فيها عبد الباقي نصفَ ورقة يانصيب.

أُعلِنَ عن نتائج يانصيب معرض دمشق الدولي على شاشة التلفزيون في وقت متأخِّر من الليل، وكان عبد الباقي وحماه الحاج إبراهيم نائمَيْنِ في قريتيهما المتباعدتين. أتت النّتيجة مفاجِئة: البطاقة بيعتْ في محافظة الحَسَكة! عرف أولاد إبراهيم الكيكي أنّهم فازوا بالجائزة الكبرى. لم يعرفوا كيف يزيحون كَلْكَلَ اللّيل الجاثم على صدر الزّمن، حتّى يأتي الصّباح، ويرسل الحاج إبراهيم في طلب صهرهِ على جناح السُّرعة؛ كي يخبرهُ بما جرى.

تمَّ الأمر على خير، وابتسم الحظُّ للفلاح الفقير، وعبسَ في وجوه أيتامٍ ستة. والزّمنُ خصيمُ الأيتامِ، نادرًا ما يبتسمُ لهم.

اتَّجه الصِّهرُ وحماهُ إلى البنك لتسلُّمِ المبلغ، وتقاسماه مناصفةً. أصبح عبد الباقي يمتلك مليون ليرة، بنصف ثمن الدِّيك الرُّومي الذي باعه للمرأة العجوز. لم يهنأ الرَّجل بالأموال التي هطلت عليهِ فجأة؛ لأنَّه مات بعد سنتين أو أكثر، في حين هَنِئَت الكلابُ الضَّالةُ بتناول لحم ذلك الدِّيك السَّمين.

16/12/2022

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سـ... الأخيرة

لن يتأخَّرَ عن مواعيدهِ. لا يُخلف وعدًا قطعهُ على نفسهِ. من الآن فصاعدًا سيأخذُ الحياةَ على محمل الجِدِّ أكثر من السَّابق؛ كي يحظى باحترام الموت. الابنُ الحقيقي للحياة هو من يتمرَّدُ عليها حينًا، ويهادنها حينًا آخر، ويسلِّمُ أمرهُ إليها أحيانًا. سيعتذرُ إلى الكُتب التي تركها من دون إكمال قراءتها. سيجاهرُ بما كتمهُ من الأفكار والأقوال طَوال حياتهِ. سيفعلُ كلَّ ذلك، وأكثر، إذا ما أوقفَ الضَّبابُ تسرُّبَهُ إلى عينيهِ، وعاودَ الدِّفءُ جريانَهُ في أوصالهِ.

18/01/2023

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قناع

لئلا يكرِّرَ نفسهُ، نصحهُ الكثير من أصدقائهِ الفنانين بالتَّوقُّف عن رسم البورتريهات، أو أن تكون وجوهُ شخصيَّات لوحاتهِ عديمةَ الملامح؛ لأنَّه كلَّما رسمَ وجهًا -سواء أكان لرجلٍ أم امرأة، لطفلٍ أم عجوز- من دون أن يدري؛ تسرَّبت إليهِ ملامحهُ.

قالوا له: "أنت مُهَوَّسٌ بنفسكَ. تجعل من وجهكَ قناعًا لشخوصكَ. النَّرجسيَّة ألّا ترى في الحياة إلَّا نفسكَ".

صديقٌ واحد فقط طالبهُ بالتوقُّف عن الإنصات لكلِّ تلكَ التَّرثرات. وقال: "دع عنك ذلك. ملامحكَ ليست نموذجيَّة حتَّى تكون مُهَوَّسًا بها. لكَ وجهٌ واحد، لا يمكنك مواراتهُ خلف قناع. ولكلِّ واحدٍ منهم ألفُ قناع، ضاعت بينها وجوههم".

ذلك الصَّديق اللَّدود لم يكن إلَّا صوتَ عقلهِ الذي قلَّما يتدخَّل في لوحاتهِ.

18/01/2023

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تَرِكة

بخلافِ ما درجتْ عليهِ الحكاياتُ في أثناءِ تركِ الوصايا، لم يكن عليلًا ينازعُ الموتَ؛ بل في كاملِ صحَّتهِ حين قال: "هذا ما ورِثتُهُ مِن أبي، أتركُهُ لكَ؛ كي تكون سعيدًا في حياتكَ، لا تطرحْ على نفسك أو الآخرين أسئلةً ثلاثًا: أينَ نهايةُ الكون؟ أينَ نهايةُ العِلم؟ متى سينقطع نسلُ الأسئلة؟".

ـ وهل عَملتَ بهذه الوصايا الثّلاث؟ سألَ الابنُ والدهُ.

ـ طبعًا لا. لا تسلني؛ لماذا؟ لأنَّني لم أسَلْ والدي. وفي ظنّي، أنَّه لم يسأل جدِّي أيضًا.

بُنَيَّ؛ الحِكمةُ لا تورَّثُ، بل الجهل.

18/01/2023

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ابن الخائن

صبيحة يوم السَّبت 6 مايو 2023، عُثِرَ على جثَّة العجوز الصِّيني صون أون تسينغ، بعد تعفُّنها في منزله الرِّيفي. مِن شدَّة الرَّائحة الكريهة، خرج كلبهُ الضَّخم، العجوز أيضًا، وصار يصدرُ نباحًا أليمًا، كأنَّه ينعَى صاحبه، ويدعو القرويين إلى دفنهِ.

خبرُ موتهِ لم تذكرهُ وسائل الإعلام الصِّينيَّة. ماذا يعني موتُ شخصٍ هامشيٍّ جدًّا وسط المحيط البشري المتلاطم والهائل الذي يُدعى الصِّين؟ زيدوا على ذلك، لم يكن المُعمَّرَ الوحيدَ في الصِّين الذي حياته وموتهُ كانا أمرين استثنائيين يمكن أن يجذبا وسائل الإعلام واهتمام النَّاس هناك. موقع إلكتروني بلجيكي نشرَ الخبرَ نقلًا عن صِحافيَّة كانت هناك في جولة سياحيَّة، ولم تكن مُكلَّفة مهمَّةً صِحافيَّة. جاء الخبر تحت عنوان: "كلب عجوز ينعَى صاحبه العجوز"، ركَّز التقرير الإخباري على وفاء الكلب لصاحبه، وكيف بقي إلى جواره إلى حين تحلل الجثَّة، وعجزه عن تحمُّل رؤية صديقه يتفسَّخ ويتشوَّه أكثر. ذلك الخبر، الذي شاعَ وراج على مواقع التَّواصُل الاجتماعي، هو الذي فتح أعين الصِّينيين على عجوزهم وكلبهِ. الصِّينيون خارج الصِّين، لا يتابعون إعلامها؛ بل يتابعون أخبار بلدهم من مرايا إعلام الآخرين.

بعد ذلك، بدأت القصص والمرويات تتوالى عن حياة الرَّجل. ومنها: مُغادرتهُ مسقطَ رأسه "شاوشان" ليس بسبب لقب "ابن الخائن" الذي لاحقه على امتداد حياته؛ بل لأنَّه استيقظ يومًا على صوتٍ يناديهِ قائلًا: "غادِرْ مكان ولادتك إلى المكان الذي ستلتقي فيه والدك، أيُّها الطاوي العزيز". امتثل لذلك النِّداء، واستقرَّ في قرية نائية، على يمينها نهر "يانغتسي"، وإلى يسارها جبالٌ شاهقة. فيما بعد، اكتشف العجوز أنَّ ذلك النِّداء الذي هاتَفَه كان في يوم موت "ماو تسي تونغ" ذاته؛ 9 سبتمبر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.1976

لم يكن يحبُّ الشُّيوعيَّة، رغم فقرهِ وبؤس حاله، ولم يحقد على الأغنياء والنُّبلاء. كان والدهُ ضمن قوَّات الـ"كومينتانغ" بزعامة "تشيانغ كاي شيك"، وقُتِلَ في الحرب الأهليَّة الدّائرة مع الشّيوعيين سنة 1948، في حين لم يعرف صون أون تسينغ؛ لماذا لم يقاتل مع والدهِ، حاملًا سلاح الـ"كومينتانغ" ضدَّ الشّيوعيين!

في أثناء البحث في منزلهِ عُثِرَ على دفتر يوميَّاتهِ، ذكر فيه: أنَّ أحد أكبر أحلامهِ تحقق؛ بسماع خبر موت ماو تسي تونغ. وقال: "كثيرًا ما لعنت نفسي وعاقَبْتها؛ لأنَّني قاتلتُ مع مَن أكرههم، ضدَّ مَن أحببتُهم".

تلك اليوميَّات، لم تكن مكتوبة باللّغة الصّينيَّة أو اليابانيَّة أو أيّ لغة مجاورة؛ بل باللغة اليونانيَّة. وهذا ما أثار دهشةً وحيرةً، لغطًا وأسئلةً واحتمالاتٍ كثيرةً، خلاصتها: كيف جرى ذلك؟ ولماذا؟ من أين له تعلُّم اليونانيَّة؟

وفي تتمَّة التقرير الإخباري؛ أنَّ "نتفليكس" ستحوِّل قصَّة العجوز صون أون تسينغ وكلبه إلى فيلم سينمائي.

6/5/2023

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خطأ مطبعي

في أثناءِ منحهِ جائزة البوكر العربيّة، عن روايته السّابعة، جاء في التّقرير النّهائي للجنة التّحكيم ما يلي: "اختيارُ الكاتب للعنوان كان موفّقًا جدًّا؛ لجهةِ حضورِ التّضادّ المثيرِ للالتباسِ والأسئلةِ المحفّزةِ فقهَ التّأويل، وتركِ بابِ الاحتمالاتِ مشرعًا أمامَ خيالِ القارئ ووعيهِ وذائقتهِ، وجعله شريكًا للمؤلّف في صناعة المعنى".

كلامٌ مُكرَّر، لا جديد فيه!

صاحبُ الرّواية الفائزة جالسٌ في الصّفوف الأماميّة، واضعًا ساقًا على ساق، كوعهُ على مسند الكرسي، ويدهُ تغطّي شفتهُ السّفلى وكاملَ ذقنهِ الحليق اللّامع، وابتسامتهُ تتجاوزُ سَعتُها سَعةَ القاعة الضّخمة، إلّا أنّه يحلّق بريش وجناحي طاووسِ الانتشاء، بالرّغم من سماعهِ مرارًا ذلك الكلام عن العناوين، سواء من نقاد آخرين، أم قرأهُ في مقالاتهم المدائحيّة ودراساتهم النّقديّة لعناوين كُتبهِ، أو عناوين أعمال روائيّة أخرى. ما زال المديحُ خمرَهُ الذي كلّما سمعهُ، طلبت نَفسُهُ المزيد.

صَعِدَ المنصّةَ وسطَ تصفيقٍ حادٍّ، وموسيقى مُصاحبة، وإضاءة باهرة متغيّرة، ورشقاتِ فلاشاتِ كاميراتِ التّصوير. ألقى خطاب الفوز؛ هو أيضًا خلا من أيّ جديد ومختلف. استمرّ في مواصلة لعبةِ الكِتمان، وعدم المجاهرة بعدم تصديقهِ كلامَ النُّقاد ولجنة التّحكيم حول روايتهِ عامةً، وعنوانها خاصةً. ذلك أنّ الأمرَ كان محضَ خطأ مطبعي، لا أقلّ أو أكثر. الأصلُ أنّه اختارَ عنوان "صنم وردي وثرثار"، ولأنّ زرّي حرفَي الميم والنّون متجاوران على الكيبورد العربي، نقرَ إصبعهُ زرَّ الميمَ بدلًا من النّون، فأصبح العنوان "صمم وردي وثرثار". في أثناء مراجعته النّص، كان يقرأ الكلمة "صنم"، في حين أنها مكتوبة "صمم". لم ينتبه لذلك إلّا في المراجعة الثّالثة. فاعتمد الخطأ المطبعي؛ تسليمًا بزلّة الإصبع، وأنّ

عدم انتباههِ له إلّا في المراجعة الثّالثة ربّما كان إشارة غامضة تأمرهُ بالانقياد وراء الخطأ المطبعي الذي تحوّل إلى أصلٍ وصوابٍ راسخٍ، ومن صُلبِ الرّواية، وأحد أسباب فوزها!

بعد أن حازت روايته -بعنوانها ذاك- رواجًا، عزّزتها الجائزة الكبيرة، وتحوُّلها إلى فيلم سينمائي، وكتابة أطروحات دكتوراه عنها؛ قرّر صاحبها كشف حقيقة الأمر، وأنّه طوال حياتهِ، رغم سعادته بها، لم يُصدّق تأويلاتِ النُّقاد، واعتبارَهُ إياها صنفًا من الدّجل الجميل، وادّعاءات ومزاعم مفرحة. في أفضل أحوالها؛ هي مجاملات سخيفة، مدغدغة لـ"أناه". وما دفعه إلى جَعْل ذلك الخطأ المطبعي طيَّ الكِتمان؛ تَيقُّنه من أنّ مستقبلنا ومصيرنا -سلبًا أو إيجابًا- ربّما يكون معلّقًا بخطأ مطبعي، نرتكبه سهوًا، أو يقترفه شخص آخر بالوكالة عنّا.

لم يذكر لقُرّائه ونُقّادهِ -في حينهِ- أنّ عنوان الرّواية لم يكن وليد عبقرية أدبيّة أو حصيلة ضربة حظ، أو ما شابه ذلك؛ لخشيتهِ انهيارَ مجده الأدبي، بسبب الكشف عن ذلك السّر السّخيف والتّافه. الآن، لنْ يُحاسَب كاتبنا الكبير المشهور الذي بات مرشحًا لجائزة نوبل عن تلك الرّواية نفسِها، إذا صرّح بما كتمه طوال سنوات. بالعكس، شبكة علاقاته العامّة الهائلة والمرعبة، كفيلة بتشكيلِ فريقٍ من النّقاد، المحامين؛ كي يترافعوا عنه، وتسطيرِ تأويلاتٍ جديدةً تتجاهلُ التّكتُّم وخلفيّاته، وتُضخِّم الإفصاح عنهُ، على أنّه شجاعة وإبداع...!

قبل مباشرتهِ في كتابته مذكراته التي قرّر أن يطويها على إماطة اللّثام عن بعض أسرارهِ المتعلّقة بالكتابة ومصادرهِ، قضى كاتبنا السّبعيني الكبير، في حادث تحطم طائرة.

نحن الآن في 7 مايو 2030، نحيي الذّكرى السّابعة لرحيل صاحب رواية "صمم وردي ثرثار" التي كان مفترضًا أن يكون لها اسم آخر. رحل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كاتبنا، وبقي سرُّهُ في صدري. ولن يصدِّقني أحد إذا كشفتُهُ. أقَلُّ ما سيقال عنِّي: إنَّني أكذبُ على الموتى، وأبحثُ عن الشُّهرة، وإنَّ المجالس أمانات...، إلى آخر هذه التّوصيفاتِ البليدةِ والسّخيفة.

07/05/2023

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انتحار قرصان

حين بدأت آلامُ المخاض تنتابُ صوفيا أنطونيو دي ماراس، كانت المظاهراتُ تعمُّ مدنًا أوروبيَّة أخرى، ضمن حركة إضرابات واحتجاجات عارمة. جرى ذلك ليلةَ الخميس 30 مايو 1968 في حيّ "كوفا دا مورا -Cova da Moura" شديدِ البؤسِ والفقرِ والخطورة، بالعاصمة البرتغاليَّة، لشبونة. صراخُ صوفيا كان أعلى من صرخات أولئكَ المحتجِّين الغاضبين وقتذاك. للوهلةِ الأولى، تأوُّهاتها -نتيجة آلام الوضع المبرِّحة- ظنَّها بعض سكَّان العمارة ذات الطَّوابق الخمسة، تأوهاتِ امرأة تمارس الجنس بعنف وشبق وشهوانيَّة مريعة. ولولا تلك الصَرخات المزعجة، والمثيرة أيضًا، لما أتت جارتان لنجدتها؛ لعلمهما أنَّ أمَّ صوفيا امرأةٌ عجوز، شحيحة البصر، لا هي محسوبةٌ على العميان، ولا على المبصرين والمبصرات!

بشقِّ الأنفُس؛ نجحت الجارتان في جلب قابلة إلى تلك الشَقة الحقيرة في الطَّابق الأرضي من عمارةٍ متهالكة، غيرِ معروفٍ تاريخُ مولدها. المباني والبيوت لها تواريخ مولد، وتواريخ وفاة، تشيخ وتمرض أيضًا، وأحيانًا تصبحُ أثرًا بعد عين، وتعود إلى تراب، تمامًا كالبشر!

لحظةَ دخول النِّسوة الثَّلاث على صوفيا وأمِّها، وجدن العجوز على وشك قتل الطِّفل، وسحق رأسه كي تخرجه وتخلِّص ابنتها من آلامها. هكذا هُنَّ الأمَّهات؛ ينظرن دومًا إلى أبنائهنَّ وبناتهنَّ، على أنَّهم أطفالٌ أبديُّون!

أزاحتِ القابلةُ الأمَّ، وباشرت عملها، وأنهتهُ بسرعة ومهارة. هدأت عاصفة العويل والنُّواح بصرختين أطلقتهما صوفيا وطفلها معًا.

في أثناءِ إلقامها إيَّاهُ حلَمَتَها كي ترضعهُ جرعةَ الحليبِ الأولى، همست له بعينين يملؤهما الرِّضا والثِّقة والأمل: "بُنيَّ، عِشتَ تسعةَ أشهر صامتًا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وخرجتَ إلى عالمنا بصرخة، فلا تغادر الحياة بصمت. كنْ همجيًا، فوضويًا، عبثيًا، أو حكيمًا، كُنْ أيَّ شيء، ولا تكُنْ صامتًا".

بعد مضيّ أشهر، بدأت تتضحُ ملامحهُ أكثر. طفلٌ أشقر، بعينين زرقاوين واسعتين، مع وجود وحمةٍ سوداءَ أسفلَ ذقَنِه، مغطاة بوبر أسود ناعم، كأنَّها لِحية. طفلٌ مُلتحٍ، يا للغرابة! ولأنَّها حملتْ به من علاقة عابرة مع بحَّار اسمهُ جوزيه؛ قرَّرت صوفيا تسمية ابنها باسمهِ.

رغم أنفِ الفقر والعوز والفاقة، شبَّ جوزيه أنطونيو دي ماراس، بجسد ضخم، وبنية قويَّة، وعضلات مفتولة، وشعرٍ طويل مجدول، وشارب أشقر كثٌ، ولحيَة بلونين؛ شقراء من الجانبين، وسوداء كالحة، ناحية الوحمة المفروشة أسفل ذقَنه. إطلاقهُ اللِّحية جعل شكلَهُ مهيبًا، أشبه بالقراصنة الذين قرأ عنهم، وشاهدهم في أفلام السِّينما.

كان حادَّ الذَّكاء، متفوِّقًا في الدِّراسة. جرَّهُ الفقرُ عَنوةً من المدرسة، ولم يدعهُ يُكملُ تعليمه، وأجبرهُ على العمل في مطاعم حَيَّيْ "آلفاما" Alfama، و"موراريا" Mouraria اللّذين يقصدهما السيَّاح؛ باعتبارهما تقليديَّين. اكتسبَ سمعة طيِّبة هناك، وجمع بعض المال، وكوَّن شبكة علاقات مع بعض الأجانب. بعد موت جدَّتهِ، قرَّر مغادرة حيّ "Cova da Moura" الذي تكثر فيه الجريمة والصِّدامات بين رجال العصابات، واستأجر شقَّة صغيرة في حي "بايكسا" Baixa. بدأت أحوالهُ تستقرُّ وتتحسَّن.

في الثَّلاثين من عمرهِ، افتتح حانوتًا لبيع الملابس المستعملة. توسَّعت تجارته وراجت. خلال عقدين، سيطرَ تمامًا على ذلك السُّوق، وصار يصدِّر إلى دول أوروبا الشرقيَّة، وجنوب آسيا، وأمريكا اللاتينيَّة، وإفريقيا. هكذا، أصبح ذو اللِّحية السَّوداء؛ جوزيه أنطونيو دي ماراس، إمبراطورَ الملابس المستعملة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في مثل هذا اليوم؛ 30 مايو 2018، وهو يحتفل بميلاده الخمسين، برقت في ذهنهِ فكرة غريبة، مضحكة، وربّما سخيفة، مفادها: افتتاح معرض لبيع ملابس المشاهير الدّاخليّة المُستعملة، شريطة أن يكون أصحابها انتقلوا إلى الضفّة الأخرى من الحياة.

قرّر تشكيل فريق لتنفيذ الفكرة. وضع قائمة بأسماء مشاهير السّينما، الغناء، السّياسة، الأدب، الرّياضة، العلوم...، الموتى، طبعًا. خلال ستة أشهر، نجح في تتبُّع وجَمْع وشراء كميّة من الملابس الداخليّة لـ مايكل جاكسون، دييغو مارادونا، جاكلين كيندي، نيكيتا خروشوف، مارلين مونرو، ألبرت آينشتاين، جان بول سارتر، بابلو بيكاسو، فيرنادو بيسوا، فريدا كاهلو، سيلفادور دالي، وافتتح بها معرضه، واضعًا أسعارًا تمنح نسبة أرباح معقولة، كبداية. كلُّ ذلك، وسطَ حملة إعلاميّة كبيرة.

يعلمُ أنّ فكرته تلك -على تفاهتها- ستجذبُ مئاتِ التّافهين الذين يملكون الملايين، ولا يعرفون كيف يبذّرونها في أمور وأشياء بالغة السّخافة! كأن يقتني أحدهم كلسون أو سوتيان مونرو أو أودري هيبورن، إليزابيث تايلور، ويتأمّلهُ، ويبحث عن قصصٍ لتلك القطع؛ متى اشترتها صاحبتها؟ وهل حصلت عليها هديّةً من زوجٍ أو عشيق؟

بدأت تصل إليهم قطع الملابس الدّاخليّة، مع وثائق تؤكّد صدقيّة نسبها، وتخضع أحيانًا لفحص الـ"DNA" للزيادة في التثبُّت والتّوثيق. يرتفع السّعرُ، كلّما كانت تلك القطعة غير مغسولة، ومحافِظة على رائحة صاحبها أو صاحبتها.

هكذا، تمّت أرشفة الملابس الدّاخليّة لعشرات المشاهير، ضِمْن قاعدة بيانات مرفقة بالصُّوَر، وتشكّلت بورصة خاصّة بها؛ هذا كلسون فريدا، اشتراه لها زوجها دييغو ريفيرا، وذاك كلسون وسوتيان أتَيَاها هديّة من عشيقها ليون تروتسكي. تلك القطعة تعود إلى سيمون دي بوفوار، أهداها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جان بول سارتر. وهذه للأميرة ديانا، وتلك تعود إلى مونرو، مرفقة بحكاية مثيرة عن كلِّ قطعة.

كلُّ من يدخل المعرض للفُرجة، يقطعُ تذكرة الدُّخول ويدفع مالًا -سواء اشترى أم لم يشترِ- حتَّى المعرض الإلكتروني، والفرجة الإلكترونيَّة، ليست بالمجَّان، على الزَّائر "الافتراضي" الدَّفع قبل المشاهدة.

هكذا، صار المشاهير الأحياء يحتفظون بملابسهم الدَّاخليَّة؛ لأنَّها تشكِّل جزءًا من ثروتهم، هنالك مَن سيشتريها مِن ورثتهم، أو منهم؛ لعرضها بعد موتهم.

في 30 مايو 2023 قرَّر جوزيه أنطونيو دي ماراس الاحتفالَ بعيد ميلاده على متن طائرته الخاصَّة "بوينغ 787". وعلى ارتفاعٍ يزيد على عشرة كيلومترات، نظر بسخف وازدراء إلى الأرض، وقال لمرافقيه: "لا تبيعوا ملابسي الدَّاخليَّة بعد موتي، ولا تضمُّوها إلى متحف التَّافهين".

تلك كانت آخر وصيَّة له، سجَّلها صندوقها الأسود، قبل تحطُّم الطَّائرة وسقوطها في مياه المحيط؛ نتيجة انفجار قنبلةٍ، ما يزالُ التَّحقيقُ جاريًا لمعرفة كيف وصلت إلى هناك، ومن يقف وراءها!

18/5/2023

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عيناهُ اللّتان تكذبان عليه

مِن خلف درابزين النّافذة، شاهدَ مرارًا جنازاتٍ تمرُّ من أمام باب منزله. يُهرعُ لإطفاء التلفزيون بسرعة؛ تعبيرًا عن الحِداد. هكذا، علّمتهُ أُمّه. بيتهُ الطيني لا يطلُّ على شارعٍ رئيسٍ في البلدة، ولم يكن قريبًا من المقابر أيضًا، ومع ذلك، لم يسأل نفسهُ؛ لماذا تمرُّ الجنازاتُ أمام منزلهِ؟

ذات يوم، فاض به الفضولُ وجَرَفَهُ خارجَ البيت، حين رأى جنازةً تمرُّ. جذبهُ شيءٌ خفي، وجعلهُ يمشي في تلك الجنازة. لم يندغم في الموكب، واكتفى بالسَّير على الأرصفة الموازية له. طفلٌ في التّاسعة من عمرهِ يمشي في جنازة غريب قيل: إنَّه قضى منتحرًا.

لضآلة جسدهِ، بدت لهُ أجسادُ المشيِّعين عملاقة، وعددهم الذي لم يتجاوز المئة ظنَّه حشدًا غفيرًا، لا يمكنهُ إحصاء أفرادهِ. مَوكبٌ باعثٌ على الرَّهبة، يتقدَّمه أطفال شمامسة يكبرونهُ أحجامًا وربَّما سنًّا، يرتدون جلابيبَ بيضاءَ، مُطرَّزة بالزَّخارف وشارة الجمع (+) التي يعرفها في كتاب الحساب، يحملون شموعًا كبيرة وأعمدة تنتهي بعلامة الـ(+) ذاتها التي وجدها على النَّعش أيضًا! استغربَ من كَثرَتِها في الموكب الجنائزي، وعدم وجود علامة الطَّرح (-) بالرّغم من أنَّهم فقدوا شخصًا. "ربَّما لأنَّ الموتى ازدادوا فردًا؛ لذا استخدموا الـ"+"، قال في نفسه، مُسوَغًا. لحينهِ، لم يكن يعرفُ شيئًا مقدَّسًا اسمه الصَّليب.

الرَّتَلُ الأوَّل، يتوسَّطهُ القسِّيس ومعاونه وأقارب الميِّت. تليه أرتالُ الرّجال، ثمّ خليط من النِّسوةِ يرتدين ملابسَ سوداءَ، يصرخن، يندبن، ويبكين، فيختلط نحيبهن بخشونةِ ورخامةِ أصواتِ القسِّيس ومَن حوله، وهم يرددون التّراتيل الدينيَّة السّريانيّة. الوقتُ عصرٌ، والشّمسُ بدأت مَيَلانَها نحو الغروب. وصلوا إلى مقبرةٍ خارج البلدة، مفتوحةٍ على الخلاء. تلك كانت أوّل مرَّةٍ يمشي في جنازة، ويدخل مقبرةً، ويتجوَّل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بحذرٍ شديد، كالسَّائر في حقل ألغام؛ خشية أن يدعسَ قبرًا. "احذرْ دعس القبور. حرام. الموتى يتألَّمون"، نصحته جدَّتهُ، لكنَّها لم تأخذهُ يومًا إلى مقبرة.

الجموعُ المتراصَّة حول القبر، شكَّلت جدارًا من المَرَدَة يستحيل على طفلٍ مثلِهِ اختراقهُ كي يَشفي غليلَ فضولهِ، ويكتشف ما يجري داخل ذلك الطَّوق والحصار المُشدَّد المضروب حول الحفرة! رائحة البخور ودُخانه المتصاعد من مبخرة القسّيس، وصوتهُ الذّكوري الرّخيم مردّدًا التراتيلَ والأدعيةَ المُغَمغَمةَ غير المفهومة تتسيَّدُ المكان. فجأةً، خيَّمَ صمتٌ ثقيل، ثمَّ بدأت أصوات المجارف كأنَّها مَلاعقٌ تغرفُ من طبقٍ عملاقٍ مليء بالتّراب والحصى. تجددَ العويل وتصاعدَ النَّحيب وهاجَ أكثر. وقتها، خمَّنَ الولدُ؛ أنَّ الميّت يُوارى بالثّرى، والمشيِّعين يهيلون الترابَ عليهِ. ثمَّة شخصٌ ضاع إلى الأبد، ولن يروهُ مجدَّدًا.

بعد لحظات، خفَّ طوق الحصار، ونجح الطّفل في التّغلغل والمرور، فرأى كومة ترابٍ بيضاويَّة تتوسَّط الجموع الحزينة المطأطئةِ رؤوسها. استمرَّ القسّيس في ترديد تمتماته، محرِّكًا مبخرتهُ كأنَّهُ مُشعوِذٌ يودُّ إخراج الميِّتِ من قبرهِ، لكنه لا يستجيب! وهل الميّت مجنون، حتّى يستبدلَ بالسّكون والرَّاحة الأبديَّين الضَّجيجَ الأبديَّ؟!

تذكَّرَ الطّفلُ كلام جدَّتهِ عن الموتى: "يسيرُ الميِّتُ في جنازةٍ، لا يعلمُ لمَن هي! وحين ينفضُّ المشيِّعون عن القبر قافلين إلى بيوتهم، يحاولُ هو أيضًا النّهوض كي يعود معهم إلى بيته، فيرتطم رأسه بالحجر المسطَّح الموضوع على جثمانِهِ. وقتذاك، يتيقَّن أنَّهُ المَيّتُ، وتلك الجنازة التي مشى فيها كانت جنازتهُ".

شعرَ بألمٍ شديد يعتصرُ رأسهُ. خشي أن يكونَ سببه ارتطامَهُ بالحجر. هل هو الميّت الذي دفنوه قبل لحظات؟ سألَ نفسه. ها هو يحثُّ الخطى

عائدًا إلى البيت، ويلتفث حول نفسهِ كالمذعور مِن إطباقِ الليلِ جفنيه على المكان! وصلَ إلى البيت مُنهكًا، هلِعًا يلهثُ، فاستقبلهُ عويلٌ ونحيبٌ وبكاءٌ شديد، بلغةٍ يفهمها ويتحدَّث بها. التقطت أذناهُ صوتَ أمِّهِ وجدَّتهِ. حاول الوصول إليهما، عابرًا الحشد المُكتظَ؛ كي يتبين الأمرَ، وما الذي حدث؟! لم يلتفت إليهِ أحد، كأنَّه غريب. هالهُ ما رأته عيناه! بحث عن شيء يكذِّبهما، لكنه فشل.

17/05/2023

أوستند – بلجيكا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عادات سيِّئة جدًا

تتابعهُ من كثب، وتتتبَّعهُ على مواقع التّواصل الاجتماعي. تحصي عليه الإعجابات والـ"سمايلات"، وتفتعلُ التّجاهل. كامرأةٍ تعرفهُ معرفةً سطحيَّة عارضة، كتبتْ له على "واتساب": "ماذا تفعل هذه الأيَّام؟". أجابها: "لا جديد؛ أنامُ قليلًا، أقرأُ، أكتبُ بعض المقالات والنّصوص. أخوض المعارك السّياسيَّة والثّقافيَّة...، أكاتبُ نساءً كثيرات، وأفتقدكِ وأشتاقُ إليكِ. هل رأيتِ في حياتكِ رجلًا ميؤوسًا منه، ولا يرغب في تغيير عاداتهِ السّيّئة، مثلي؟".

وضعت قلبًا على إجابتهِ. كأنَّ ألفَ شيطان يجرُّون إصبعها نحو زر الاتصال، وهي تمانعُ، وتقاومُ رغبتها في سماع صوتهِ.

19/5/2023

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نهاية مفقودة

يبدو أنَّ البحثَ عن نهاية لائقة، أمرٌ متعبٌ للغاية، أكثرُ صعوبة من البحث عن بداية مشوِّقة. كأنَّهُ أمضى عقوبةَ عشرين عامًا من الأشغال الشَّاقة، عن جريمة كان يرغبُ في ارتكابها، ولم يفعل. وأخيرًا، هكذا اختتم روايتهُ الأولى: "لا أمتلكُ سعادةً تكفيني العيشَ يومًا إضافيًا آخَر، ولا الحزنُ يلوكني، ويلفظني؛ لتتولاني الخيبة. لستُ غاضبًا من نفسي، ولا حانقًا يائسًا من الحياة والآخرين؛ كي أخطّط لجريمة قتل. لستُ ملاحَقًا أو هاربًا من حكم بالإعدام. لكن، لا أعرف لماذا أقود سيَّارتي بسرعةٍ جنونيَّة في هذه الطَّريق الجبليَّة المليئة بالمنعطفات والمنحدرات!".

شَعرَ أنَّهُ نسي شيئًا كان عليهِ قولهُ، أو فعله، أو إضافتهُ. شيءٌ يشتدُّ حول عنقهِ كحبل المشنقة. قفزَ من النَوم، كأرنبٍ مذعورٍ من ظهور ثعلبٍ أو ذئب فجأةً. شربَ كوبين من الماء. فتحَ اللابتوب، وبدأ يكتب ويكتب، كالرَّاكض في ماراثون، يريدُ الوصول إلى النَهاية، ولا يجدها.

20/5/2023

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نعي مُتأخِّر

وسطِ العشرات، وربّما المئات، من النّساء والرِّجال، ممّن عايشوه، صادقوه، سافروا معه، أو جالسوهُ في المؤتمرات والنّدوات، شاركوه فطورهُ، الغداءَ أو العشاءَ، دخلوا معهُ البارات وصالات القِمار، قلّة قليلة جدًّا من أولئك يعرفون عنهُ "سرَّهُ" الذي ما عاد سرًّا، حين أودعهُ لدى صديقة.

ذلك الرّجل الأنيق جدًّا، اللَّبِق، اللّطيف في تعاملهِ مع النّساء، والشّرس أحيانًا، كان عادلًا في تعاملهِ مع عشيقاتهِ. يراسلهن بانتظام، يهنّئهن في أعياد ميلادهنَّ، لا يبخل عليهنَّ بالهدايا، ولا يدع واحدة تعرف الأخرى، كأيِّ زير نساء محترف، يحترمُ نفسَهُ وعشيقاتِهِ. لذا، ناصبهُ الرِّجال المحيطون به من أصدقاءَ وأقاربَ، وشركاءَ، وزملاءِ عمل، الكراهيةَ والعداءَ المتواريَيْن خلف ألف قناع.

كان مجتهدًا وناجحًا. ما يكسبه على طاولة القمار، يخسرهُ على طاولات النّساء وأسِرَّتهنَّ. ذلك الرّجلُ الودودُ الدّمث، يعاني التوحُّدَ والاكتئاب. دائم الحزنِ والبشاشة. لم يغادرهُ وسواس الانتحار قَطُّ، إلى أن غادر هو ذلك الوسواس. لذا، بكَتْهُ نساؤه الكثيرات بمرارةٍ وسخاء وحسرة، إلّا تلك الصّديقة التي أفشت سرَّه. تلك الحمامة التي حاولت اللّحاق به إلى حيث قرَّرَ الاستقرار بعيدًا، فقط، كي تقول له: لكَ رسالة عاجلة لم تقرأها بعد، أيُّها الغريب.

20/05/2023

أوستند– بلجيكا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طريق باتجاه واحد

بخلاف العادة في هذه الأوقات من السَّنة، لم يكن القطار المتَّجه مِن Oostende إلى Eupen مكتظًّا أو شبه فارغ. كان في مقام "منزلةٍ بين منزلتين". ومن عاداتِ صاحبنا وتقاليده، في أثناءِ السَفَر بالقطارات، الجلوسُ إلى جوار النَّافذة، تاركًا المقعدَ المجاورَ للممرِّ فارغًا، ربَّما تشغلهُ فتاة أو امرأة فاتنة، وربَّما يكون الحظُّ كريمًا معه أكثر، إذا جلست إحدى الحسناواتِ قبالتهُ.

"في أوروبا والبلدان المتقدِّمة"(2) للضَّيفِ أفضالٌ عظيمة وكبرى على البشر؛ لأنَّه يفيض بالثِّمار والفاكهة الفاتنة التي تغدقها الحسناوات على كلِّ الأمكنة، خاصَّةً السَّاحليَّة منها. كأنْ نرى أنواعًا خاصَّة ورائعة من السَّنابل، وكروم العنب والتِّين، مختلفةً عن التي رأيناها في بلاد الشَّرق.

يفتعلُ الشُّرودَ والنَّظرَ إلى الطَّبيعةِ والرِّيف البلجيكي الذي يمرُّ من خلف نافذة القطار. يتصنَّع القراءة من الموبايل، أو تصفُّحه. لكنَّه، في الحقيقة، يختلس النَّظر إلى بدائع الخالق في محاسن ومفاتن الجالسات أمامه، ويلتقط أحيانًا صورًا بالموبايل. يعرف أنَّ الأمر مخالف للقانون، لكن لا قانونَ أمامَ سُلطةِ جَمالِ النِّساءِ وسطوتِه وجبروتِه.

بعد مغادرة القطار محطَّة مدينة "Brugge" جلستْ قبالتهُ أربعينيَّة، سحرها يكتمُ الأنفاس، ترتدي تنُّورة قصيرة، انحسرت أكثر في أثناء الجلوس. ركبتاها تبرقان كتفَّاحتين كبيرتين، تشفَّان عن بذرتيهما. أمَّا بطتا السَّاقين، فسمكتان ناصعتا البياض. فوق الرَّكبة اليسرى، قليلًا إلى الأعلى، نصبت شامة (حسنة) بنيَّة داكنة كمينًا مُحكمًا لعينيه.

يحاول النَّظر إليها، عبر صورتها المشوَّشة المنعكسة على زجاج النَّافذة. قميصها، كريمُ للغاية؛ بلا أكمام، لا يشفُّ عن حمَّالة صدرها والبطن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فحسب؛ بل يكشفُ عن القليل من النَّهدين أيضًا. هناك شامة أخرى، رابضة كذئب، أعلى النَّهد الأيسر، قريبًا من الخط الزِّلزالي الفاصل بين النَّهدين. يا إلهي! شامةٌ ثالثةٌ على الرَّقبة الهيفاء، إلى اليمين، ورابعة على الخدّ الأيمن، قريبًا من العين اللوزيَّة الزَّرقاء. هي حديقة شاماتٍ إذن. غالبُ الظَّنِّ أنَّها تُخفي المزيد.

هي أيضًا جالسة في هدوء وطمأنينة، تقرأ في كتاب متوسِّط الحجم، كثير الصَّفحات. أحيانًا -وكاستراحة بصريَّة من القراءة- تتأمَّل النَّافذة، كأنَّها شاشة عرض، وحدها في القطار التي تشاهدها، ولا يقابلها ذئب أنيق ومحترم، يلتقط لها الصَور، بعد جعلهِ الموبايلَ صامتًا؛ لئلا تصدر الكاميرا صوتًا مخرِّشًا خادشًا للفضيحة.

استمرَّ الأمر على تلك الحال أكثرَ من ساعة وربع. وصلَ القطارُ إلى محطَّة Brussels – Midi. كان مُجبَرًا على النَزول. انتزع نفسه من المقعد، كطبيب أسنانٍ فاشل ينتزعُ ضرسًا سليمًا من مكانهِ بطريق الخطأ. ما إن همَّ بالوقوف، حتى اعترضهُ صوتها العذب المفاجئ:

ـ ليست هذه المحطَّة التي يجب أن تنزل فيها. كان عليك النَزول في محطَّة Gent-Sint-Pieters. والآن، ماعليك إلَّا العودة مرَّة أخرى إلى الوراء.

فتحت حقيبة يدها وأخرجت منها نظَّارة طبيَّة، وناولتهُ إيَّاها: "في المرَّة السَّابقة، نسيتَ القليلَ مِن سعالكَ في صدري، وبعض قلقكَ على وسادتي. تفضَّل هذه. لماذا تنسى دائمًا أشياءك في منزلي؟!". قالتها، وفاض الوجه الصَّبوح بكلِّ تفاصيله ابتسامة ساحرة، حوَّلته إلى صنمٍ، كلُّهُ آذانٌ وأعين مُصغية. لم ينتبه إلى أنَّ القطار تحرَّك مجدَّدًا.

21/05/2023

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جدل

"ليست بأرض الآلهة، ولا سقف العالم، حيثُ أقفُ. ليس بالشَتاء وحدهُ ترتوي الأرض، ولا بالصَيف وحدهُ ينضجُ العنب، والتين والقمح". قالها الرَّاهب البوذي؛ شان يون زونغ، وهو يعتلي إحدى قمم جبال "كونلون" البركانيَّة، مُخاطبًا نسرًا عملاقًا.

وضع الرَّاهبُ عينيهِ في عيني النَّسر، وأمَرهُ بالهبوط قبالتهُ، كمُعلِّمٍ يأمرُ تلميذهُ. بدا وكأنَّه يتحدَّثُ إلى الطّير الرَّهيب بلغتهِ.

ـ توقَّفْ عن الصَّيد والقتل.

ـ وكيف أعيش؟ سألهُ الطّير.

كما أعيشُ. كُلما داهمني الجوع، لُذتُ بالماء.

ـ لا أستطيع. سأموت، إن لم أقتل وأفترس. هذا ما خلقني عليهِ ربِّي.

ـ بل تستطيع. جرِّب.

ـ لن أخالفَ طبائعي التي وهبها لي خالقي. مخالفةُ طبائع الذَّات من مخالفة خالقها.

ـ ستحاسَبُ ذات يوم على القتلِ والبطش، ولن ينفعك القول: "فطرتَني على الفتكِ وإزهاق الأرواح، فلماذا تحاسبني على ما فطرتني عليه؟!"، أجابهُ الرَّاهب.

ـ علِّمني، أكنْ لكَ عبدًا. قالها النَّسرُ بتوسُلٍ ورجاء.

ـ ابقَ حُرًا، ولا تكن عبدَ من يعلِّمكَ شيئًا. من يستعبدكَ بعلومهِ، كَمَن يستعبدكَ بجهلهِ. كُنْ مُعلِّمَ نفسكَ تبقَ طليقًا، ولن تصبحَ مطلقًا.

ـ فلماذا تطالبني بتبنِّي طريقتك في الحياة؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ كي تَتيقَن أنَّ المُعلّمين غالبًا يناقضون علومهم.

سأغادرك. لي صديقان لم أرهما منذ أمد؛ الأوَّل يعتلي قمَّة "آرارات" في كردستان، والآخر يعيش في قمَّة "كليمنجارو".

ـ هل ترغب في أن آخذك إليهما؟

ـ أكون لك شاكرًا. قالها الرَّاهب وعيناه تقطران شُكرًا ورضًا.

ركبَ ظهر النَّسر وهو يردِّد في قلبهِ، فيسمعهُ النَّسر بقلبهِ: "احرمني من رؤيتك، ولا تحرمني طاعتك؛ ففي طاعتكَ اللقاءُ، وفي رؤيتكَ الفناء، لا تحبب الموتَ فيَّ، ولا تحببني في الحياة. يا معبودي وصاحبي، اجعلني صاحبك".

23/5/2023

أوستند – بلجيكا

.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالأبيض والأسود

قبل أسبوع، كُنتُ هنا. بدَتِ المدينةُ جميلةً بفوضاها وبساطتها، كما كانت تظهرُ دائمًا على البطاقات البريديَّة. مقهى الصَّيادين شبهُ مكتظّ، ومقهى المثقَّفين شبه فارغ. محطَّةُ القطار تستقبلُ وتودِّع قطاراتها بمَن فيها مِنَ المسافرين وحقائبهم وأسرارهم. الميناءُ ما يزالُ خاضعًا لأعمالِ الصِّيانة والتَّوسعة التي لا تنتهي. البحرُ على حاله؛ بمزاجٍ مُضطربٍ حينًا، وهادئ أحيانًا، لا حرجَ عليه أو عتب؛ لأنَّهُ مصابٌ بوسواسٍ قهري واكتئابٍ مزمن منذُ قرنين. أمَّا المعابدُ، فشبهُ مهجورة، وباتت أقربَ إلى متاحف من كونها دُورَ عِبادة. المقابرُ؛ يَستقبلُ فيها الموتى القدامى نزلاءَ جُددًا. الحافلاتُ تنقل النَّاس إلى مشاغلهم وأماكن عملهم. صياحُ الأطفالِ في باحات المدارس يتصاعد كبخار ملوَّن إلى السَّماء. ذلك العجوز الذي سيحتفل بعيد ميلاده المئة، يوم غد، يسردُ ذكرياته عن الحرب العالميَّة الثَّانية لحفيدهِ الخمسيني، وهما جالسان على مقعد في الحديقة. تلك القطَّة السَّوداء تنظر إليَّ بطمأنينةٍ من خلف زجاج النَّافذة.

كلُّ شيءٍ كان على حالهِ، لم يتغيَّر.

ما الذي حدث، وكأنَّني الآن أمامَ صورةٍ مشوَّشة، مأخوذةٍ من فيلم وثائقي قديم، بالأبيض والأسود، عن مدينة مرَّ بها زلزال أو حرب مدمِّرة؟! لماذا أجدُ الأنقاضَ والرُّكام في استقبالي؟!

22/5/2023

أوستند – بلجيكا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هِكتور الإسباني

اشترى ثري ينحدرُ من أسرةٍ نبيلة عجلًا صغيرًا من فصيلة (Toro de lidia)، بنيَّ اللَّون، يميل إلى الشُّقرة، لم يمضِ على ولادته أسبوع، ويزن 33 كيلوجرامًا. صار يربِّيه في مزرعته الخاصَّة. يمسك بالرَّضَّاعة ويلقمهُ حلمتها البلاستيكيَّة. يغسلهُ، يلاعبهُ، يركضُ معهُ في ساحة المزرعة التي لم تكن لتربية أو تسمين الأبقار أو العجول. لديهِ عُمَّال في المزرعة، إلَّا أنَّه يستمتع بتربية "هِكتور" والعناية به. هكذا سمَّاه؛ تيمُّنًا بأمير "طروادة" الذي رفض الحرب، وشارك فيها مكرهًا، وقُتِل.

كَبُرَ العجلُ كطفلٍ مُدلَّلٍ في كنفِ والدهِ، ضمن مزرعةٍ من الحبِّ والمودَّة والعناية والرِّعاية. أصبح ثورًا عظيمًا مهيبًا، غير مخصيّ، يزِنُ 500 كيلوجرام تقريبًا، بقرنين معقوفين مدبَّبين، إلَّا أنَّه غير عدواني أو شرس، بل طيِّع ومسالم، لا يشكِّل أيَّ قلق أو متاعب لصاحبهِ ولعمَّال المزرعة.

هكذا، أمضى "هِكتور" سنتين كاملتين في ضيافة صديقهِ وصاحبهِ، لم يرَ فيهما أيَّ بقرة، ولا يعرف أنَّ هناك على هذا الكوكب كائناتٍ جميلة تشبههُ، اسمها أبقار. فجأةً، وجدَ نفسه مطرودًا مِن الجنَّة التي كان فيها! بعد كلِّ ذلك النَّعيم والدَّلال، نُقِلَ إلى حظيرة بائسة، وبقي هناك أسبوعًا. في مساء 30 أبريل 1976 أدخلوه ملعب "دي لاس فينتاس" (de Las Ventas) المبني على الطراز العربي في مدريد. وسط صياح الجماهير الجالسة على المدرَّجات وهياجها، كان في استقباله المصارعُ الإسباني المعروف خوان إيميليو سانشيز؛ ذلك الثَّري الذي اشتراهُ، حين كان عِجلًا صغيرًا.

صحيح أنَّ "هِكتور" لا يميِّز الألوان، إلَّا أنَّه تعرَّف على صديقه. اقتربَ منهُ بهدوء، كالسَّابق. لم يرَهُ ذلك الودود الذي يداعبهُ بلطفٍ ويلاعبهُ. إنَّهُ شخصٌ آخر؛ يصرخ فيه، ينظر إليه بغضب، يناديه للنِّزال والقتال، يحاول

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استفزازهُ بحركات بهلوانيّة ساخرة، يلوِّح أمامهُ بخرقةِ حمراءَ، من دون أن يحرِّك كلُّ ذلك لديهِ ذرَّة غضب.

استغربَ الجمهورُ برودة أعصاب الثَّور، واعتبروهُ بليدًا كسولًا! صاروا يصرخون أكثر. مُتعتهم في رؤية أحدهما يقتل الآخر، لكن الثَّور رفضَ قتال صاحبهِ وصديقهِ. ما جرى، كان غريبًا حقًّا!

دخل ثلاثة من معاوني خوان الحلبةَ على أحصنتهم. صاروا يستفزُّونهُ، يغرسون حرابهم في حدبته. وأخيرًا؛ أيقظوا النُّزوع العدواني في "هِكتور" من سباته. صار يهاجم المصارعين الآخرين، ولا يكترث للواقف في السَّاحة؛ خوان. مع ازدياد الحِراب في ظهره، وتفاقم الجراح والنَّزف، لم يتوقَّف الثور عن الجري وراء الأحصنة، ظنًّا منه أنَّ المصارعين على صهوات أحصنتهم وحوشٌ تهاجم صديقهُ، فأرادَ الدِّفاع عنهُ. كلَّما حاول خوان الاقتراب منهُ، تجاهَلهُ "هِكتور"، وركَض في اتجاه الآخرين. مشهد غريب، سريالي، لم يحدث، ولن يتكرَّر. بعد مضي نصف ساعة من عدم مبالاة الثور، غرسَ خوان حربة في ظهر الثَّور. لحظات، توقَّفَ عن الرَّكض. استدار نحو صديقه القديم. نظر إليه بعينين منكسرتين، كأنَّه يبكي. أطلق خوارًا عظيمًا، ثم سقط على الأرض. ازدادت غرابة الجمهور والمصارعين معًا. ما زال باكرًا على مصرع الثَّور، فلماذا سقط؟!

اقتربوا منهُ، وإذا بهِ من دون حراك، والدَّم ينزف من فمهِ وخياشيمهِ، كأنَّ نزيفًا داخليًّا حدث له. مات "هِكتور". تراجيديا ماثلة أمام أعين آلاف المشاهدين المصدومين ممَّا رأوهُ! كأنَّ إحدى أساطير الأقدمين تتجسَّد في حلبة "دي لاس فينتاس"!

بدأت الأحصنة تجرُّ "هِكتور" إلى خارج الحلبة، وسط تصفيق قليلٍ مفتعل قام به الجمهور على مضض. لم يكن معروفًا أهو تصفيق لشجاعة المصارع الذي قتل ثورًا من دونِ طعنهِ طعنةً قاتلة أم للثور على نجاحه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في تأدية دور مسرحي بإتقان!

خوان أيضًا، مذهولٌ ممَّا رأته عيناه. واقفٌ كصنم، وسط الحلبة. موجودٌ في المكان، وغائب عنهُ. صار يسأل نفسه لماذا فعلَ كلَّ ذلك؟! لماذا أتى بالعجل وربَّاه وجعلهُ ثورًا، وأودى به في حلبة الصِّراع؟!

فجأةً، انتبه إلى جرِّ جثَّة "هِكتور" خارج الملعب. لحق بها، ورفضَ منحها للجزَّارين الذين ينتظرون أخذ الثِّيران المقتولة إلى المَسلخِ. أعاد خوان ثورَهُ إلى جثَّتهِ، مزرعته، مقتولًا. صار يبكي بحرقةٍ ومرارةٍ بُكاءَ أبٍ على فقدانهِ طفلَهُ في الحرب. وعقابًا لنفسهِ، أمر خوان بتحنيط "هِكتور" ووضعه في صالون منزله؛ لئلا ينسى جريمته.

ذكرتِ الصُّحفُ خبرَ اعتزال المصارع خوان إيميليو شانشيز وهو في أوج مجدهِ، مع سرد مجريات تلك الواقعة كاملةً. وأضافت الصُّحفُ تفصيلًا مجهولًا، أو ربّما نسيهُ النَّاس، عن حياة المصارع الإسباني الكبير، مفاده: أنَّه ورثَ عن أبيهِ مصارعة الثِّيران، وتلك المزرعة الجميلة. والدهُ المصارع الكتالوني الذي ذاع صيتهُ في العالم، قبل مقتله في حلبة المصارعة وبعده. وقتذاك، كان خوان في السَّادسة من عمرهِ، جالسًا مع أمِّه باولا، على مقاعد المتفرِّجين، يتابعون تلك المعركة الرَّهيبة بين والدهِ وثور مقاتل. نظرًا إلى البسالة والشّجاعة التي أبداها الثّور؛ طلبَ الجمهور من المصارع أن يَعدل عن قتلهِ، فاستجاب. في أثناء تأديتهِ التحيَّة للجمهور، غافلهُ الثورُ وعاجلهُ بطعنة رهيبةٍ مميتة في ظهرهِ، جعلت قرنهُ يخرج من صدرِ المصارع. لم يكتفِ بذلك؛ بل حملَ الثورُ ضحيَّته على قرنيه، وصار يجري في الحلبة بجنون، كأنَّهُ يستعرضُ قوَّته وجبروتهُ، مأخوذًا بنشوةِ النَصر، وسط ذهول ورعب المتفرجين. حاول المصارعون المساعدون الانقضاض على الثَور القاتل، وإنقاذ زميلهم، لكنهُ مات، بتلك الطَريقة الغادرة الفظيعة. جرى ذلك أمام عيني خوان ووالدته، في 30 أبريل 1956 وداخل حَلبَة "دي لاس فينتاس".

ظنَّ الطفل أنَّ ما يشاهدهُ، مع بكاء أمِّهِ وصراخها، هو مجرَّد لعبة، ستنتهي ويعود ثلاثتهم إلى بيتهم معًا. لكنهما عادا، في حين ذهب والده إلى مكان بعيد، ولم يعد.

بعد قرار اعتزال خوان إيميليو شانشيز، حاصرتهُ موجةُ اكتئاب شديدة؛ ما أجبرهُ على دخول مصحَّة نفسيَّة ستَّة أشهر. بعد عودته إلى الفيلّا الخاصَّة به وجد "هِكتور" في الصَّالة، كأنَّه يستقبله، بنظرات العتب والخيبة والأسف.

في 30 أبريل 1995 أنهى خوان إيميليو شانشيز حياته، عن عمر ناهز الخامسة والأربعين، وترك وصيةً غريبةً لزوجته وطفليه؛ أن يُدفنَ في جسد "هِكتور" بعد تفريغهِ من مواد التَّحنيط، ويُدفَنا معًا في قبر واحد. واختتم وصيَّته بالقول: "يا لكم من سعداء لأنَّكم لم تروني مقتولًا في حلبة المصارعة!".

5/6/2023 – أوستند

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مع "تشي"

في نهارٍ مُصفرٍّ، مرتعشٍ، وكئيب من نهارات سبتمبر، جمعتني أطلالُ مدينةٍ مُدمَّرةٍ، بـ"تشي غيفارا". ظهرانا مستندان إلى جدارٍ متهدّم، نتأمّلُ الكلابَ والقطط الشَّاردة التي تجوب الأنقاض والرُّكام، بحثًا عن شيءٍ تأكلهُ. مِن بعيد، ما يزال صدى دويِّ القنابل يأتينا مع النَّسائم متأرجحًا.

الشَّيء الذي ما زلتُ أذكرهُ أنَّ "تشي غيفارا" لم يكن قائدي، ولا عدوِّي أيضًا، ولم نكن على موعدٍ سابق! مع ذلك، لم أتفاجأ بوجوده هناك. أخرجتُ من جيب سترتي ألبومَ صورٍ بالأبيض والأسود، وأهديتهُ إيَّاه، فأهداني ديوانَ شعر، وألبومَ صورٍ ملوَّنة. لففتُ سيجارة تبغ، وأعطيته إيّاها. وضعها خلف أذنهِ اليسرى. ابتسم لي بشُكرٍ، ثمَّ نهض. لم يودِّعني، ولم ينفض عن نفسه غبار الشِّعارات. أدار ظهرهُ إليّ متَّجهًا نحو أحد المواخير التي خلَّفتها الحرب. بقيت نظراتي تلاحقه. على بُعد عشرة أمتار، أخرج لفافة التَّبغ من خلف أذنه، وضعها بين شفتيه، ثمَّ أحنى ظهره، ومال بجسدهِ قليلًا، محاولًا حماية النَّار التي أشعل بها سيجارتَهُ.

كذلك أنا، نهضتُ. أشعلتُ سيجارتي. كنتُ مُصابًا برصاصاتٍ وشظايا في ظهري، وصدري، وفخذي اليُسرى. جراحي لمَّا تزل طريَّة وساخنة. كلَّما سحبتُ نَفَسًا من السِّيجارةِ؛ سحبتُ من الموتِ نَفَسَين. وكلَّما منحتني السِّيجارةُ قُبلةً، قبَّلني الموتُ مرَّتين.

أدرتُ ظهري إلى القصائد، واتجهت نحو حانة الهزائم الباكرة والمتأخِّرة.

كان نهارًا شديدَ الاصفرار، مُغبرًّا ومبتسمًا، ذلك الذي قُتِلتُ فيه على أرضٍ غريبةٍ، أجهلها، وتعرفني.

21/10/2020

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(1) القصة من التراث الكردي، سمعتها من جدتي. أعدت كتابتها بتصرف.

(2) عبارة كان يكررها أحد أبطال فيلم «الإرهاب والكباب» لعادل إمام.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner